

رَحْلَةُ الْحَجَّازِ

٢٠
١٣٤٩

بمقدم
ابراهيم عبدالقادر الميازي

الطبعة الأولى

اكتوبر سنة ١٩٣٠ م — جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ

الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة فؤاد بشارع عبدالحق التنباطلى رقم ٢٠ ميدان الأوبرا بمصر

رحلة الحجاز

بقلم

ابراهيم عبدالقادر المازني

(طبع في مطبعة فؤاد بعطفة عبد الحق السنياطي رقم ٢٠)
بميدان الأوبرا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

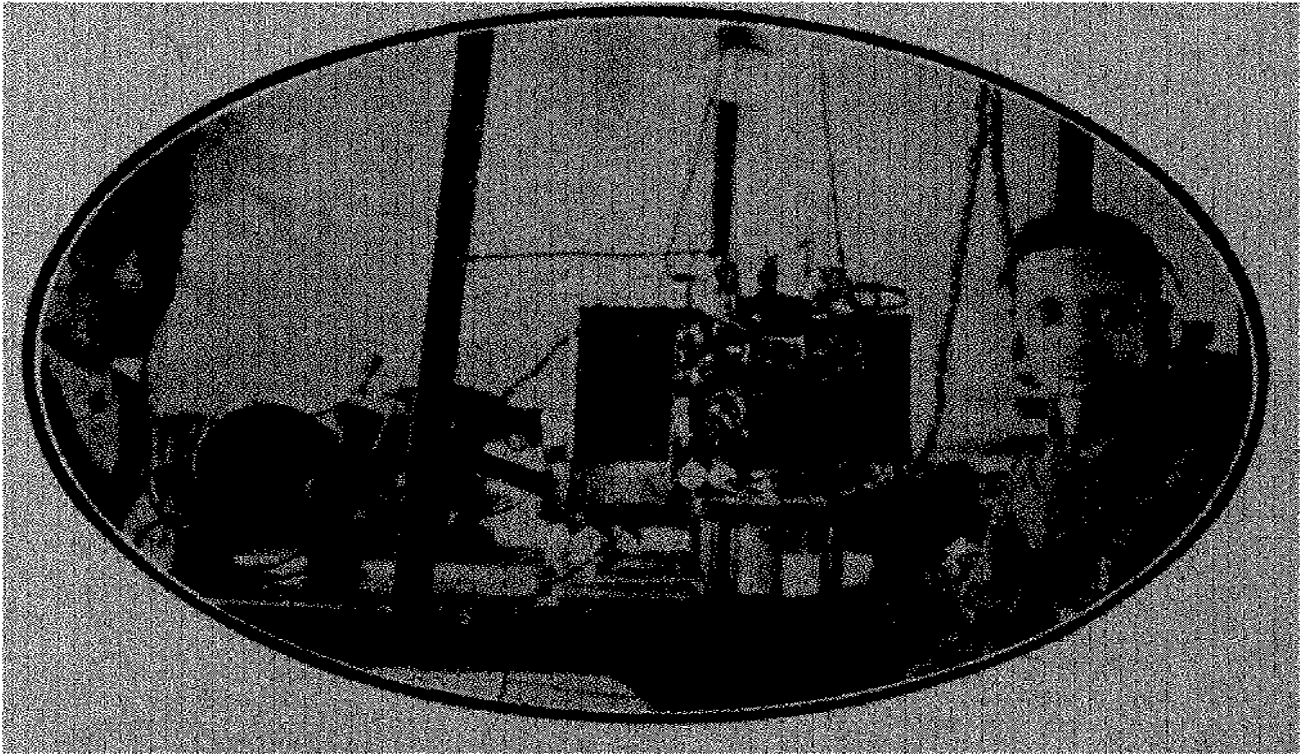


جلالة الملك ابن السعود والأمير سعود ولي عهده ونائبه في نجد
والأمير فيصل نائبه في الحجاز

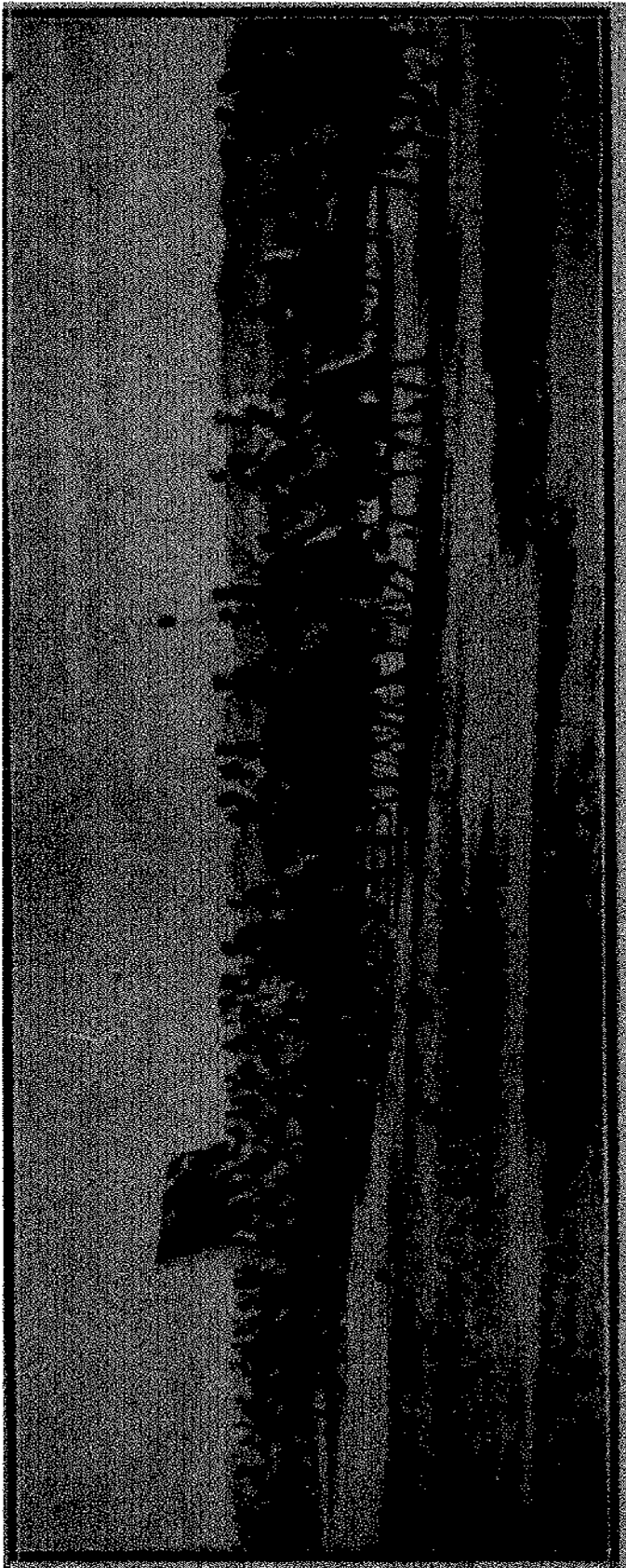
الاهراء

« الى التي تفرح لفرحى وتحزب ، لحزنى والتي أسى والبر افتعفو
وأرقتها فتحنل ، والتي لا تكور دممى الاراضية عنى ميا هبة بى
داعية لى
الى أمى ... »

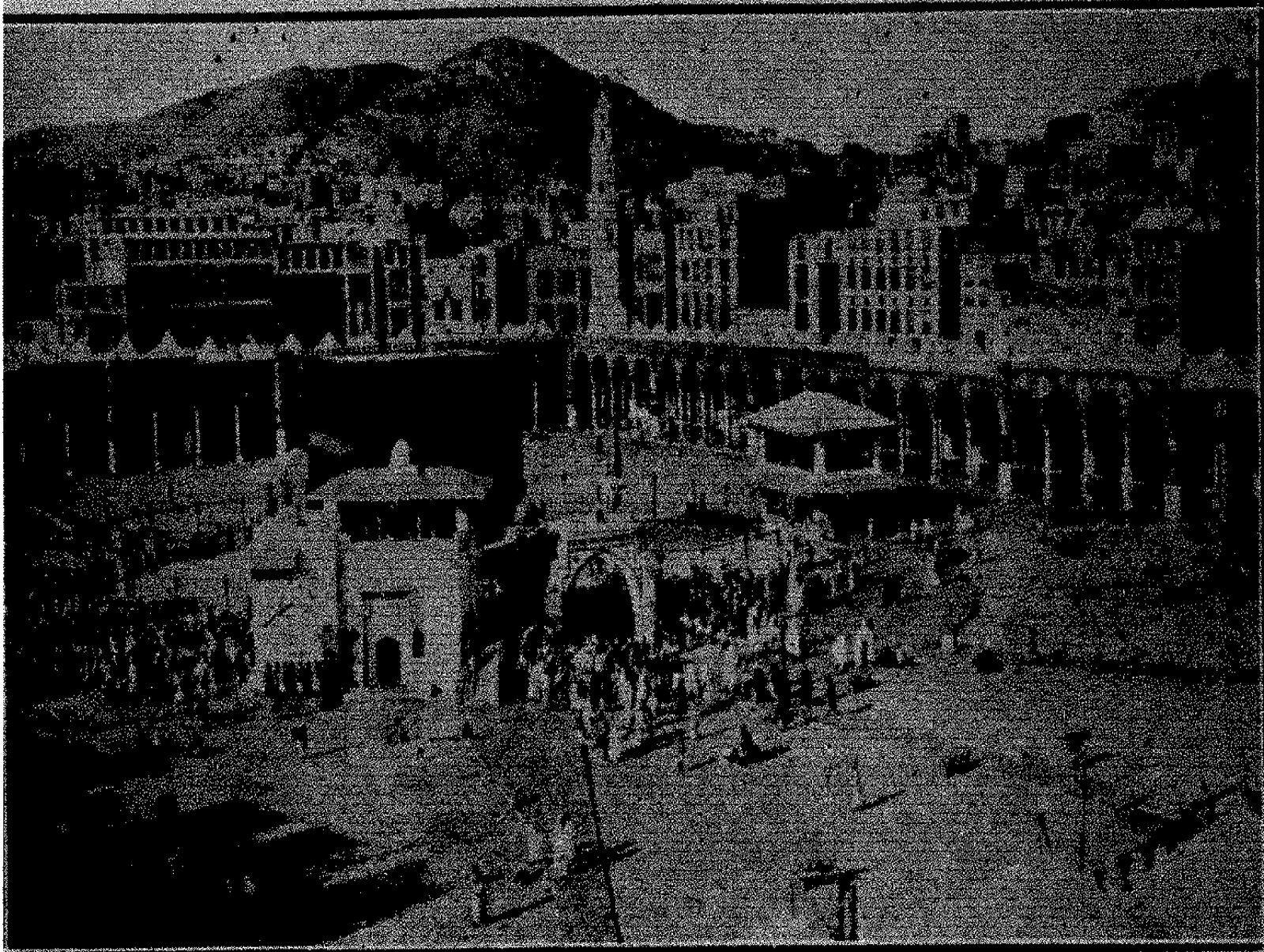
ابراهيم عبد القادر المازنى



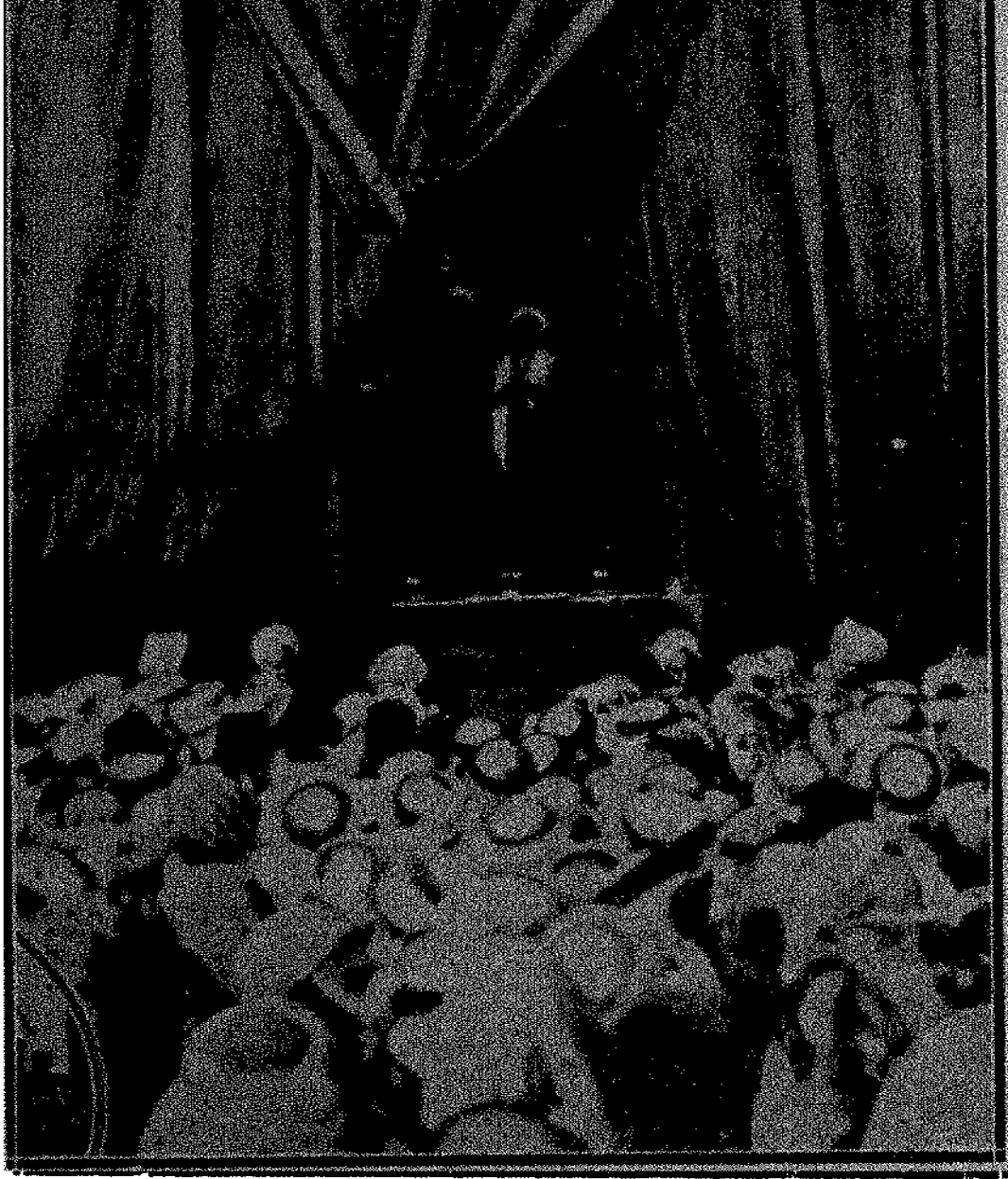
اللاسلكى فى ينبع ويرى فى الصورة عامل اللاسلكى وهو حجازى



عرض الجيش في الكندرة



صورة للحرم الشريف وترى فيها الكعبة ومقام الخليل وبئر زمزم



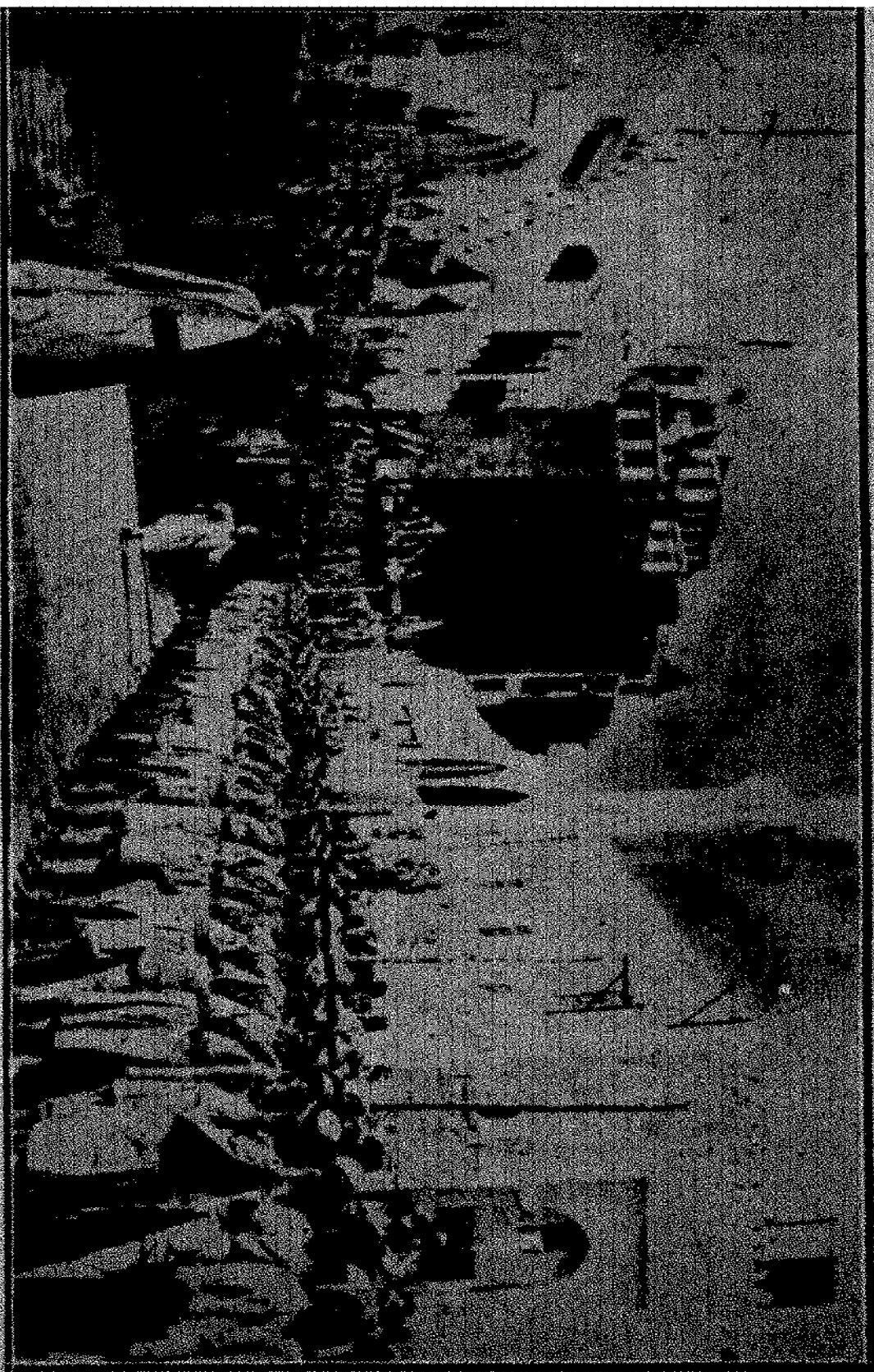
صورة لباب الكعبة ويرى سادنها فيه يدعو لجلالة الملك



فريق من الصحفيين في ثياب الاحرام وهم الشاعر الزركلى ونييه
بك العظمة والسيد عبد الوهاب نائب الحرم والأستاذ محمود
أبو الفتح والمؤلف وأمامهم ابراهيم افندى شاكر



الموائد الافرنجية في وادي فاطمة وبرى الامير فيصل وعلى يمينه ويساره ممثلو انجلترا والروسيا



الجيش الحجازي مصطفى في الطريق الى باب الصفا - من أبواب الحرم - لمور سمو الأمير فيصل



سمو الأمير فيصل سائراً في الحرم إلى باب الكعبة
وأمامه العبيد في أيديهم المباخر ومندوبو الصحف المصرية حوله

في الطريق الى ينبع

رأيت نفسي أتساءل - وأنا أصافح ربان السفينة وأستفسر منه عن الجو وما ينتظر أن يكون ، والبحر وهل يرجى أن يكون لينا ،

• ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التي سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها ؟ هل تكرر على العالم نهضة جديدة ؟ أودع الكر فقد تكون مسافة ما بينها وبين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا ، وسل هل في وسعها أن تشق طريقها الى منزلة من منازل الحياة العزيزة ؟ «

ومن عجائب النفس الانسانية أنها تتسع لهذا الازدواج : هذا الربان أمامي أجازبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جد إلى هزل ، وأعرفه بهذا وذاك من إخواني ، وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكثر شعابه ، ويذهب هو يصف لي ميناء ينبع وجده وكيف تكثر في مدخلها الصخور ، وأنا منصت مرهف الآذان لكل حرف ، ولساني يجرى بالكلام مجاوبا أو ملاحظا أو مسائلا ، واذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيها ويأبى إلا أن أعني به وألتفت اليه . ولعل



الأدوات التي استعملت لطهي الطعام في وادي فاطمة

للقلب في أثناء ذلك التفاتة أخرى الى الأهل والايوان والى ما خلف المرء ووراءه من معاهد حياته ، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهي لفظة شاملة محيطية ، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبي من البروز ، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه ، بلا بنس ولا وكس . على أن هذا ليس موضع الإفاضة في قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانعصراف الى كل شأن كأنها متخالية له ، فلنرجع الى ما كنا فيه .

لم أجب على سؤالي وان كان التفكير فيه قد شغلني طول الطريق ، لأن كل ما أعرفه عن العرب في حاضرهم مستفاد مما قرأت أو سمعت ، ولم أر موجبا للتعجيل بالجزم وليس بيني وبين المعاينة إلا أيام . غير أن هذا لم يعفني من إلحاح هذا الخاطر الذي ظلت النفس تواجهني به وترفعه قبل عيني على صور شتى . فمرة يكون السؤال كما أوردته ، وتارة يكون « هل في الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة في العصر الحاضر من الكفاح المر ؟ وطورا يهتف الأمل « أن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لا تستطيع أن تكافح المصاعب التي تحفها بها الأحوال العارضة ؟ » وربما جنحت النفس الى اليأس كلما تصورت بعد ما بين

العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التي أغذت السير قرونا وهم يحدون الابل ويقتلون كما كانوا يفعلون في الجاهلية . بل كان اليأس بخامرني كلما تخيلت الصحراء الساحقة التي يصارعونها وكنت أقول لنفسي : « هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لها في التاريخ مدينتان عالميتان ؟ ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى منها إلا ما يبقى من ألياف « القصب » الجافة بعد مصه أو اعتصاره ؟ »

وهكذا الى غير نهاية ! فما لقينا من البحر ما يصرفني عن التفكير أو يعدل نحواطر النفس الى مجرى آخر . ولقد كنا في السفينة وكأنا في بيوتنا لا على الماء ، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لا تمسه فلا موج ولا اهتزاز ولا دوار ، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلا ليردنا الى التهييب ، غير أن البحر خيب أملى فيه وقد فرحت في أول الأمر بالفرصة التي أتاحت لي هذه الرحلة وقلت لنفسي إن المصريين يخرجون أفواجا الى الأقطار الأخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم ، حتى ليخيل للبرء في مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن نهاجر الى واد غير واديهما ، وكنت في صيف كل عام أخشى أن لا يبقى في البلاد غيرى ، وأن لا يعمرها سوى ، فلما عرضت هذه المناسبة

للسفر الى الحجاز في الشتاء قات : حسن، دقة بدقة والبادى أظلم ،
لقد عمرت الوادى من قبل فلتعمره الأمة الآن ، ولتقم عنى بواجب
الحراسة التى أرانى كأنما كنت موكلا بها ، فما أحسب أحد أطاق
أن يقم كما أطق ، كأنما كنت كلباً حارساً لا إنساناً له دياجة
تخلق ، وتستحق أن تتجدد .

وسرنى على الخصوص أن السفر الى الحجاز لا إلى الغرب ،
ذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت انه يغزوها ،
فلستأ نحتاج ان نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جداً . ولنحن
خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق وصلتنا به أوثق
وارتباطنا به أمن . وما أحسبني أبالغ حين أقول إن مستقبل
الشرق واحد وان تفاوتت خطى أبنائه . ومن الجهل أن
نشيخ بوجوهنا عنه ، ومن الخرق أن تتجاهله ومن البلادة
أن ننسى أننا مرتبطون به وان خفيت الخيوط ، ومن الغفلة
أن تتوهم أن الرحيل لا يكون نافعا إلا الى الغرب ، وأنه لافائدة
تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله

وعرفت أسماء رفاقى فأطرقت أفكر : هذا احمد زكى باشا
أحدهم وهو شيخ العروبة أولا أدرى ماذا يسمونه أو يسمى نفسه
وهذا آخر من المجاهدين فى سورية ، وهذا ثالث كان له فى حركة

الاستقلال السورى دور هو أشبه بقصص السندباد البحرى «١»
فماذا عسى أن اكون بينهم؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك؟
هل فى مقدورى حين أنخر أن أدعى أنى أكثر من جندى صغير؟
ثم هؤلاء زملائى وليس بينهم إلا من هو أنشط منى وأجرأ .

واستعرت من زميل لى مبرة ، وملت الى الحاجز على ظهر
السفينة وأرهفت أقلامى ، ثم لم أجد لى عملاً بعد ذلك فأقمت حد
المبرة على حديد الحاجز ورحت كأنى أقطع ، فسمعت قائلاً
يقول لى :

« رفقتاً بالسفينة يا صديقى ! أو بمبراتك اذا كان أمر السفينة
لا يعينيك ! » فالتفت فاذا انجليزى فى مثل ثياب الربان .
فقلت له :

« المبرة عارية وقد آن أن أردھا »

فابتسم وقال :

« بعد أن شحذتها ؟ »

فسألته وأنا أشير الى رجل فى مقدمة الباخرة :

« من هذا الرجل ذو الوجه الأمرد والنظرة الوحشية ؟ » .

(١) هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى من

المجاهدين فى القضية العربية .

فقال : « هذا الكبتن ... لقد كان ضابطاً في البحرية
البريطانية وأبلى في الحرب الكبرى بلاءً حسناً ، وقد سُرح وهو
الآن يعمل في هذه الباخرة »

فتركته ، وسرت خطوات فرأيت أمامي سلباً صعدت عليه
فألفيت أمامي قوارب النجاة فدنوت من أولها ، وخطرت أن أمتع
نفسى بالجلوس فيه ، فشرعت أرفع رجلى لأخطو إلى جوفه وإذا
بيد على كتفى تُجذبنى وصاحبها - أعنى صاحب اليد - يقول

« انى مضطر أن أحملك على ترك هذا . وإذا كنت تريد أن
تعرف شيئاً فأرجو أن تسألنى ... »

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعاً إلى حيث لا أعلم كأنما
ناداه أحد وان كنت لم اسمع صوتاً ، فدنوت من خادم وسألته عنه
من يكون؟ فقال

« هذا الكبتن ... مساعد الربان »

فقلت : « هذا أكثر مما أطيق . اسمع . انك مصرى مثلى
فاصدقنى . إذا أغمضت عيني وسرت في هذه الباخرة ووضعت
يذى على أول رجل أصطدم به فهل يمكن أن يتضح أنه ليس
بكبتن ؟ »

فضحك الخادم وهو من السويس وقال :

« لا أدرى ، ولكنى أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحظ فانه

مورانك الآن وعلى مسافة مترين فقط . »

فانحدرت الى غرفتي وأنا أقول لنفسي : « ان السفينة التي لها
رئيسان تغرق وكيف بوحدة عدت من (كباتنها) أربعة الى
الآن ! اللهم لطفك ! » وفترت رغبتى فى الطعام ، وكان نديه بك
العظمة بحر ضنى عليه ويلح على أن أصيب منه قليلا ، فاعتذرت
بالآلم الذى سببته لى حقتنا الكوليرا والتيفويد ، وكتمت عنه
وعن زملائى أن للسفينة مائة رئيس حتى لأزعجهم .

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن تتصادم « ارادات »
هؤلاء القباطنة أو الكباتن ، فذهب عنى بعض الروع وعاودنى شىء
من الاطمئنان . واتفق أن سألنى بعض رفاقى :

« بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة ؟ »

فقلت : « لأدرى ، ولكنى أقدر أن سرعتها لاتتجاوز اثنى عشر
ميلا بحرياً فى الساعة »

فصاح بى واحد :

« مهلا ! ان سرعتها خمسة أميال فقط !

قلت : « خمسة أميال ! باللعمار ! لو سرنا على أقدامنا

لسبقناها ! »

فعاد يؤكد الأمر و يقول انه استقى هذه الحقيقة من الكباتن
فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت الباخرة أسرع . وقلت

لنفسى اذا كان البطاء كل ماتودى اليه اكثرتهم فلا بأس .
واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب ، لاهو صياح
ولا هو استغاثة ، لأن فيه انتظاماً ولأن فى الصوت تنغيماً ، فاستويت
قاعداً وأرهفت أذنى نخيل الى أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة
غربية ، ثم تبیت لفظين هما : « الله أكبر ! » ولكن اللسان الذى
يعلو بهما كان أعوج ملتوياً ، فعجبت ثم تذكرت أنها احدى سفن
« البوستة الخديوية » وهى شركة انجليزية تسير بواخرها بين
السويس والسودان جيئة وذهوباً ، وتنقل الحجاج - فيما تنقل -
الى ينبع وجدة - وقد رأينا بعضهم فى الباخرة على غطاء مخزن
البضاعة حيث يفرشون السجاجيد ويكدسون أمتعتهم ويحشرون
أنفسهم بينها تحت سماء الله - وهذا هو مكان الدرجة الثالثة .

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت : ان الانجليز قوم
يتوخون أن يتكيفوا على مقتضى الظروف ووفق ما تتطلبه الأحوال
وهذا الذى سمعته أذان أى دعوة الى الصلاة ، وليس مما يتنافى مع
الشذوذ الانجليزى أن تكون الشركة قد عينت للأذان فى الباخرة
واحداً من هؤلاء « الكباتن » الذين لا أدري ماذا يصنعون
جميعاً فى سفينة صغيرة كهذه ،

وسرنى وأضحكنى أن المؤذن « كبتن » انجليزى ، وقلت أشرك
اخوانى فيما يفيد العلم بذلك من المتعة ، فعدوت الى سطح الباخرة

حيث كنا نجتمع فالتقيت بواحد أقبلت عليه أفضى اليه بخبر هذه البدعة السكسونية . فضحك ، ولكن منى ، ثم أشفق أن يعرف زملائي زلتى فيركبني الثقلاء منهم بالسخرية ، وأوماً فاذا تحت أنفى جماعة من العرب يصلون ، واذا صوت الامام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى .

وكانت سلوتنا الحديث والنظر الى البحر ، و« الطاولة » وكان بطلها - أعنى الطاولة - أحمد زكى باشا ، غلبنا جميعاً وأقر لكل منا بأنه خير لاعب ؛ وفى زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة ؛ راعتنى منه ، وكان لنا كالوالد يخنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يؤثر نفسه دوننا بملهاة ، ولا يستبد برأى أو يصر على اقتراح جداً كان أو هزلاً ، بل الرأى عنده مارات الجماعة ، يتقبله مرتاحاً وينزل على حكمه راضياً ولو كان هو مقتنعاً بصواب ما يذهب اليه ، وكان أعذب الجميع حديثاً وأمتعهم مجلساً نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى ، فتعلقت بهما وأثقلت عليهما بمحضرى ، ولم أدع لهما راحة ، ولم يبخلا على شىء مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلم ، ولم يكن لهما منى مناصر أو مهرب سوى البحر ، وهما لا يزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبهما منها وأقوى رجاء فى الله وفى بلوغ

الغاية القومية من مساعيها ، من أن يفكرا في الانتحار فراراً مني ،
لذلك توثقت بيتنا العرنى كارهين أو راضيين ، فلما بلغنا ينبع صرنا
وكان صداقتنا أقدم عهداً من الجبال .

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة « الكتابة » -
وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسي المسمرة وأقبلوا
على الورق والبطاقات يسودونها لما علموا أنهم مصبحون في ينبع .
وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك « ١ » - إلى أهلهم
واخوانهم وصحفهم ، ويكفي أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى
الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة في ذلك ، فليست الثوباء وحدها هي
التي تعدى ، ولا القروود دون خلق الله هي التي تنزع إلى التقليد
ولو أن القارىء رآنا في تلك الساعة ونحن مكبون على الورق
ذاهلون عن كل ما في الدنيا لكان أول ما يخطر له أننا قد آلينا أن
نصدر في الباخرة الصحف التي نمثلها ، أو أن هناك امتحاناً
معقوداً لنا .

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فخطفناها
حتى نفدت ! كما نفذ ورق الخطابات . وتصور سبعة أو ثمانية
يستنفدون كل ما في الباخرة من ورق وخطابات ، أليس هذا دليلاً

(١) اتضح فيما بعد أن ابقاء الرسائل في جيوبنا أسرع من
إرسالها من ينبع أو جدة .

على المهمة والنشاط والخصب؟ وأحسبني مسئولاً عن العدد الأكبر من هذه الأوراق التي استهلكت ، فقد نازعتني نفسي أن أكون تفرجاً لا كاتباً ؛ وأن أمتع عيني بمناظر الوجوه المكبة على الورق . ما يظهر عليها من دلائل الاجهاد - اجهاد القرائح الخصبية - لجأت الى الحيلة وقلت أكتب رسائل بالجملة ، فجئت بورق لكرتون ووضعته بين الخطابات ، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست أتفرج !

وكان أحداً يكتب يوميات عن هذه الرحلة وكان يختصني بهذا السر ، ولا أدري متى كان يكتب يومياته ، فما رأيته قط خلا نفسه أو بكر إلى مخدعه ، وقال لي مرة :

« لقد صارت مذكراتي ضخمة . كتبت اليوم ست صفحات وكتبت البارحة سبعمائة ، وأول من أمس تسعاً ، فما قولك ؟ »
فقلت مستغرباً : « كل هذا ؟ وأي شيء وجدته يستحق لتسجيل ؟ »

قال : « كل شيء » . خطوط الطول والعرض ، ووجوه القمر ، وأدوار الطاولة التي لعبتها وفي أيها كنت الغالب أو المغلوب ، والأسماك التي رأيناها في البحر ، بعضها يطير على سطح الماء ، وبعضها يهاجم السفينة طلباً للقوت ، والبواخر التي مرت بنا في الليل وحينئذ والامر التي هي تابعة لها - وعلى ذلك أسألك هل

تعرف لماذا لانرى باخرة فى النهار؟ ألا تعرف؟ - وكم كذبة كذبها... فلان... اليوم، وحالة البحر والرياح، فان كانت لا تتغير ولا تكاد نختلف يوماً عن يوم، وهذا عمل، أليس كذلك؟ وكم صورة أخذها رياض وكم صورة أخذتها المدموازيل عابدة، كل شىء، كل شىء، حتى لقد أفردت «لأكلة الصيادية» عدة صفحات، إنها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة وكانت لذيذة. والبول المدمس! أوه. له وحده صفحاتان. ألا تراه جديراً بذلك؟ مدهش. مدهش أن نأكل فولاً مدمساً على الباخرة تالودى الانجليزية!

فسألته بعد أن انقطع نفسه: «وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك؟»

قال: «سأطبعها وأنشرها: كم تظن أنها تساوى؟ أعنى كم تتوقع أن أربح منها؟»

قلت: «تساوى: تساوى إذا اعتبرنا عدد الصفحات ووزنها قياساً على ما كتبت الى الآن مائة جنيه أو مائتين،

فصاغنى مسروراً وهو يقول: لقد قدرت لربحى مثل هذا... تماماً..»

فقلت مستدركاً: «انما أعنى ثمن الورق الذى تملؤه... أما الربح فلا أدرى. ربما كان أكثر وقد يكون أقل»

فلم يضعف أمله وقال « تمام . تمام . تقديرك على كل حال مضبوط » ومضى عنى
ولما كنا عائدين من مكة سألته : « الى أين وصلت في مذكراتك؟ »
فطال وجهه وقال : « يا أخى الحق أقول لك إن كتابة المذكرات
عمل مضمّن . ثم انى لأجد الوقت . نحن فى حركة دائمة فتى أكتب؟
على أنى سجلت كل شىء فى رأسى . فان ذاكرتى قوية وأنا
أذكر حتى الأحاديث بالفاظها ولو كان عمرها أعواماً . فلا خوف .
انتظر حتى نرجع ونطمئن »

وفى الساعة السادسة من صباح السبت (٤ يناير) أيقظنى
أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطىء قد ظهر ، فقلت له وأنا أتميز غيظاً
انى لا أحفل بالشواطىء - ولو كانت شواطىء الجنة - فى الساعة
السادسة صباحاً ، فذهب عنى وأغمضت عينى ، ولكن غيره جاء
ثم غيره ، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطىء لن تدع
لى جفنا يغفى . فقممت متشابهاً متثاقلاً ووقفت متكئاً على الحاجز
فلم أر شيئاً فالتفت الى أول من أيقظنى وقلت بلبهة المعاتب :
« أين هذا الشاطىء الذى بدا لك ياسيدى ؟ »

فقال : « هذا . ألا تراه ؟ غريب . انى أستطيع أن اشير الى
المكان الذى سترسو أمامه الباخرة . لا بد أن يكون هذا »

ومرت الساعات ونحن زوح ونجى وهو في مكانه لا يتحول عنه ولا تتعب رجلاه . وبدأت ينبع ملفوفة في الضباب ، حتى جبال رضوى التي تظهر من ورائها خلفها ضبابا من اختلاط السحب برؤوسها ، فاختلفنا وتراهننا ، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقررنا جداً من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذي أشار اليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده ، هو المقبرة

ورست الباخرة ، في المرفأ لا أمام المقبرة ، وأقبل الصبيان يسبحون اليها كالسمك وينادوننا أن نلقى اليهم بالقرش ليلتقطوها فرحنا نرمى اليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغرضون وراءه ويتلقونه بأكفهم وهو يهبط في جوف الماء قبل أن يبلغ القاع . فمن فاز به دسه في شدقه ، حتى اتفخت أشدا فهم وصارت وجوههم مشوهة بشعة المنظر

وركبنا زورقا الى المدينة ، وهي صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد ابن عطاء والخضر والسوسى ، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها « الكندسة » وهي افظة محرفة عن الكوندسر . فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها وكان عاملا عليها في عهد الحسين فلم تنحه الحكومة

السعودية ترفعا منها عن حماقات العزل والتأمير ، ووزرنا دار
الحكومة وهي ابسط ما تكون : بضعة مكانب فى الدور الأرضى ،
وفى الدور الذى فوفه غرفتان إحداهما للقاءمقام وعيها مكتب
وسجادة ولشبايبكها ستائر ، وفى الأخرى مكتبان صغيران . وبعد
أن شربنا القهوة النجدية ثم « الشاهى » كما يسمون « الشاى »
استأذنا وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى أن يخرج الامير
والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق وهى حارة ضيقة مسقفة
على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول
والمنسوجات والخبز والاسماك والجراد ، وقد أكل منه زكى باشا ،
ولم يكن فى الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق
غاصاً بالأطفال يشون ورائنا ومحفون بنا فى خرف ممزقة ومراقع
لا تكاد تستر شيئاً ، فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق
منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟؟ فقيل لى انه لاخوف منهم لأنه مامن
أحد بجرؤ أن يسرق شيئاً ،

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من
الصلاة فوقف رجل أمام كوم من الكلا وقطع من الحصير
وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد ، وكل ما أمامه لايساوى ريالاً
ولم أر امرأة ولابتنا ، الا واحدة فى نحو السابعة من عمرها
ملفوفة فى ملاءة قدرة وفى إحدى أذنيها قرط من العقيق ؛ وقيل

لى إن النساء لا يخرجن من البيوت ، والأهالى خليط من كل جنس
وملة ، وسجنهم معرض للأمم الشرقية ، فمن زنجى الى جاوى ،
ومن عربى الى مصرى ، ومن هندى الى فارسى ، ومن سورى الى
سومالى ، وهكذا .

وزرنا الأمير - أى الحاكم - عبد العزيز بن معمر ، وهو
شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد السيف ، والدار على
الطراز الشرقى القديم الذى كان مألوفاً فى مصر منذ أكثر من خمسين
عاماً ولا تزال بعض آثاره باقية فى الأحياء الوطنية التى لم تمتد إليها
يد العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح ، وغرفة
الاستقبال فى داره مفروشة ببساط أحمر والكراسى (الخيزران)
صفان على الجانبين ، وفى الصدر مصطبة مفروشة بالسجاد العجمى
وعليها الوسائد الجلوسه وكان الأمير يلبس جلباباً من السكروتة
فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء وعلى رأسه العقال
الأسود والمسدس مشدود الى وسطه والسيف المذهب المنبض
يتدلى من حمائله ، ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبي
الباب من الداخل فى نفس الغرفة ، ويجلس الباقون من الحراس
خارجها وهم جميعاً مسلحون ، والسيوف والبنادق والمسدسات
وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران فكأن الغرفة مخزن سلاح
لاحجرة استقبال

وفي ينبع بلدية ، ومكتب تلغراف لاسلكي ، ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصري طبقاً لمناهج التعليم المصرية وفيها نحو مائة وتسعين تلميذا متفاوتي الاسنان والأطوال ، متبايني الثياب مختلفي الوجوه . ومصاحبة للصحة الخ

وقد شعرنا من أول لحظة أننا في بلاد مستقلة فلا أجنبي هناك ولا نفوذ ولا سلطان الا لأبناء البلد وكل موظف حجازي حتى اللاسلكي عماله ومديره حجازيون ، وقد أبي زكي باشا الا أن يرى هؤلاء العمال وهم يعيشون بتحتيتنا الى سمر الأمير فيصل في مكة كأنما لم يكن يصدق ان لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا ما بحسنه الأوربي من الاعمال الآلية على الأقل .

وودعنا الأمير بعد أن أخذت صورتنا معه وعدنا الى الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة ويشكرنا ، وبعث الينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه عوضاً عن الغداء الذي لم نستطع أن نجيب دعوته اليه اذ كنا قد تغدينا في الباخرة .

فخرنا ماذا نصنع بهذه الخراف ! وعقدنا مؤتمراً للتشاور . فقال واحد نردها شاكرين ، ولكن هذا كان مستحيلاً ، واقترح ثان أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة ، ولكن هذا كان رداً على كل حال ، وفيه فضلاً عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها ، وقال ثالث ان في الباخرة حجاجاً فقراء فلنذبح

الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم ، ففعلنا
وهكذا كان كل اقتراح مولداً من الذى سبقه ، وأنتج الخطأ
فى آخر الأمر الصواب . ولا عجب ، فما من خاطر أو احساس الا
وهو وليد خواطر أخرى واحساسات شتى . وليس فى الدنيا الا
آدم واحد بلا أب أو أم .

وفى ينبع وجدت «صندوق الدنيا» . وكنت أحسبني حططته عن
عاتق فى مصر . وكان ظنى أنه يسعنى بعد أن سافرت أن أمشى
خفيفاً لا يشغل كاهلى هذا الحمل ولا يحنى ظهري ثقله ، فاذا بى قد
صرت كالأحذب لا يدخل فى مقدوره أن يستوى قائماً كغيره
من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من اعوجاج الخلق وحب
الظهر وقال لى واحد :

« لقد قرأت صندوقك »

فغاضنى ذلك وإن كان قد سرنى . وقلت «سأضعك فيه ان
شاء الله بعد عودتى » فأقبل على يرجو منى ألا أفعل ، فقلت :

« لى شرط »

« قال ماهو؟ »

قلت : « أن تعفينى أنت واخوانك من ذكره والا
حشرتكم فيه جميعاً »

قال وهو يضحك :

« ولكنه والله ممتع »

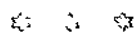
« قلت : «وسيكون الجزء الثاني أمتع بوجودكم» فامتقع وجهه ،
وأحسبه خاف أن أرسم له صورة ثمسخه وتجعله أضحوكة
فطمأنته وأكدت له أنى أمرح . فسألنى وقد سكنت نفسه :
« ولكن لماذا تذكره أن يذكر لك ؟ »

فقلت له : « إن الذى يضحكك منه هو الذى أبكاني
وأحسبني معذوراً إذا كنت ازهد فى كل ما يذكرنى بسخر ماجرت
به المقادير . فاذا كنت تفهم هذا فيها والله الحمد ، والا فأمسك
ودعنا نستمع الى الباشا وهو يتحدث عن العروبة ويذكر الجواد
الذى أهداه اليه جلالة الملك عبد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو
يطعمه أو يلجمه أو يسرجه - سله ألم يختر له أن يطعمه كنافة فى
رمضان ؟ سله أكان يأكل - أعنى الجواد - من المدود أم
كان الباشا - يبسط له السماط ويمد له الخوان ؟ »

• • •

وفى ينبع عشرة آلاف نسمة واقل من مائة جندي، والحكومة
كأبسط ما تكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحقر الأهالى ،
وسلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة ،
بل من الاحترام والحب والتعاون ، وآية ذلك أن الناس صريحون

مع حكاهم وأن الحكام لا يبدو عليهم تكلف ، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذي ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المتبسمة مع القسوة والاستبداد . ولم اسمع في المرتين اللتين زرت فيهما ينبع ، أمرا يلقي ، أو كلمة ملق ودهان تقال ، ولقد كان أمير ينبع يسر الى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو « الشاهي » أو يدعو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق ، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس في أذنه نكتة أو كلمة سارة . ولم تأخذ عيني منظر قسوة واحدا ، وكثيراً ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا - في ينبع وفي جدة وفي الكندرة وفي مكة وفي وادي فاطمة - وكان الذين يتولون ذلك الجند . ولكن بإشارة يد من غير أن يدفعوا في صدور الناس أو يرفعوا في وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك وقد عدت من ينبع الى الباخرة وأنا أحس أني بدأت أفهم ، وقد زدت فهمي لما زرت جدة ومكة . ذلك ان الرعية راضية وان الحاكم والمحكوم متعاونان



وقد اقتنعت ، وأنا لا أزال في الباخرة قبل أن أصل الى جدة أو أضع رجلي على رصيف مينائها ، بأن المرأة النجدية تعرف

السفور ولا تعرف الحجاب ، وكان اقتناعى بالمشاهدة والمعاناة وليس بالسماع ، ورأيت من الحزم أن أكتف عن زملاى ورفقائى فى هذه الرحلة هذا السر الذى اهتديت اليه لأنفرد بالعلم به وأستأثر بفضل اكتشافه والوصول اليه ، وقلت لى نفسى : ان الصحافة سبق ، ولن تكون لى مزية على اخوانى اذا عرفوا كل ما أعرف ، ومالى انا بهم ، ؟ أليست لهم عيون مثل مالى ؟

ونزلنا فى ينبع وجبنا طرقاتها ومررنا بحوانيتها ورأينا ناسها : وكنت اسمع زملاى يتحدثون عن المرأة والحجاب المضروب عليها ويرددون ما سمعوا من أنها لا تخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوى قرابتها الأذنبن ، فأبتسم ساخرأ وأهز رأسى هازئاً متهمكماً وأرد نفسى بجهد عن أن أصيح بهم :

« يا عميان ! ان نصف من ترون فى الطرقات نساء تحسبوهن رجالاً ! »

وقد رأى زملاى المساكين جدة ومكة وما بينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون ان النساء النجديات محجبات ! مساكين ! لكم وددت أن أشق لهم بالبراة جفونهم المطبقة ليصروا وكم نازعتنى النفس أن أخطبهم على ظهر السفينة ونحن راجعون ، وأن ألقى عليهم محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولكن الأثرة غلبتني ، وحب الذات كان أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبوا بعيون

مفتوحة كغمضة . وكان احتمالى هذا الكتمان وقدرتى على الامساك على سر ما علمت . جهداً شاقاً لم اكن لأقوى عليه لولا الارادة المصممة . والآن وقد امتحنت ارادتى وأيقنت انى نجحت ، أرانى أستحق ان أرفه عن نفسى بالافضاء وأن أرخى أعصابى المشدودة بالبوح بما أحسنت كتماناه .

لما صرنا أمام رابع أحرمت الباخرة - أعنى ركبها الذين يهون ان يقصدوا الى مكة مباشرة فظهر بيننا فجأة رجل نجدى قيل لى انه أمير فى قومه وحوله حاشية كبيرة من اتباعه وعبيده . وكلهم محرم . والاحرام لا يمنع ان يلبس المرء سلاحه . فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به المسدسات والخناجر وأحزمة الخراطيش واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب ، فاختلفنا وصار عبيده وخدمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة ، وهم يقدمونها فى فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة . او رشفة ، نحتاج لىكى تشربها او تلحسها او تنقلها الى فمك . ان ترفع وجهك الى السماء وتقاب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها الى لسانك ، حتى اذا فرغت دون ان تقع على الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى اذا راقتك الحركة التى يكلفك اياها شربها والا هززت الفنجانة علامة الاكتفاء . وقد سمعت - وصدقت - ان القهوة النجدية تقوى عظام العنق . وقد سمعت ايضا - ولكنى لم

أر هذا - أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهم وقوف
وكان معنا « رياض افندى شحاته » المصور المشهور فدعاهم
الى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا فتنادوني فأسرعت
اليهم ووقفت حيث وجدت نى مكانا واذا برياض افندى يدعوني
أن أتزحزح عن مكانى و يشير الى جارى فالتفت الى يمينى فلم
يسعنى الا أن أتراجع بسرعة والا أن أقول :
« بردون مدام ! أعنى معذرة ياسيدتى ! لقد زاحمتك وأنا غافل
عن وجودك فلا تؤاخذينى ! تفضلى »

وتنحيت بعد هذه الخطبة التى لم ترق من سمعها من انبوائى
فصاح بى واحد :

« ماذا تقول ؟ قف يا اخى هنا . نعم هنا واسكت . »
فهزرت رأسى أسفاً مستغرباً بقلة ذوق هذا الزميل الذى ينقم
منى تأدبى مع سيدة . فسمعت رياض افندى يصيح بى
« ماتهبز راسك يا أستاذ مازنى »

فخار الأستاذ المازنى بين رياض افندى وهذا الزميل الموبخ
وقال - أى الأستاذ المازنى - لجاره الى يساره :

« أنا كست اعتذر فوبخنى زميلى لأدرى لماذا ؟ هل كان يليق
أن أكرم الاعتذار لها بعد أن فطنت الى غلطتى ؟ »
ففتح جارى عينيه جداً وقال بلهجة المستغرب

« ماذا تقول ؟ من تعنى ؟ »

وهنا صاح رياض افندى

« يا أستاذ مازنى اعمل معروف واقف ساكت خلىنا نخلص »

فقلت « اما ان هذا لغريب ! وهل انا الذى أعطلك ؟ الحق

اقول إنى صرت لأفهم » وأيقنت أن رياض افندى غائر منى

وقال واحد كان ورأى

« لا بأس . أجل الفهم الى ما بعد التصوير »

ف نظرت الى الأمير فرأيت يبتسم . وثبتت عيني الى جارتى

الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق فوق جبينها الوضاء

ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون « بالبرينتين » والى حور

عينها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل . والى ديباجة وجهها الصافية

وماء الشباب الذى يترقرق فى وجنتيها ، والابتسامة الخفيفة المغربية

التي تفتت عنها شفاتها الرقيقتان

وأحسب عيني لم تتحول عنها ، وأظننى ظهرت فى الصورة

ناظراً اليها لالى رياض افندى ، فما كدت ألتفت اليه حتى كان قد

فرغ مما يريد فقلت لا بأس ، واقبلت على صاحبتى أكرر لها الاعتذار

وهى لا تزيد على الابتسام ولا تفتح فمها قط حتى كدت أجن

شوقاً الى رؤبة أسنانها التي لم أشك فى أنها من مفاتيحها الكبرى

وأشرت الى فمى وقلت أستفزه الى الكلام

« أليس لك لسان ؟ أنت خرساء ! مسكينة ! يا لسخر الاقدار ! »
فهزت رأسها وقالت شيئاً لم أفهمه . فأعدت ماقلت ببطء شديد
ووضوح تام ، فضحكت وهزت رأسها ثانية ، وتكلمت ، ولكني لم
أفهم . فخطر لي أنها غير عربية ، وأنها لعلها فارسية أو افغانانية
وحررت بأى لسان أخائها ، ولحق بي في هذه اللحظة زميل فجدبني
وهو يقول :

« ماهذا يا أخى ؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون
تحت الشمس المحرقة ، وبعد أن تحضر يحلوك الكلام والابماء .
هذا شيء بارد والله ! »

فقلت : « ليس هذا ذنبى فقد كنت أودى واجب الاعتذار ... »
فقاطعنى قائلاً « اعتذارايه يا أخى ؟ لا لا . . هذا لا يليق !
لقد شوتنا الشمس . وان ننتظرك مرة أخرى ،
فتركه وملت الى غيره وهمست فى أذنه
« ألا ترى هذه السيدة ؟ ألم يركك جمالها ؟ »
فقال : « سيدة ؟ أى سيدة ؟ »
قلت : « أى سيدة ؟ هذه يا أعمى ! »
وأشرت اليها

فانفجر يقهقه وأنا أنظر اليه كالآبله ، ولما رأيت أن ليس لهذا
الضحك آخر مضيت عنه الى غرفتي فالحق بي فيها وهو يقول

« سيدة ايه يامولانا ! هذا رجل »
فانتفضت واقفا وصحت به مغصبا
« رجل ؟ تقول انها رجل ؟ أنا أم أنت الأعمى ؟ »
فعاد الى القهقهة ، وقعدت ، ثم قلت له
لقد كلمتها ووجهت اليها الخطاب بضئير المؤنث فلم تعترض
فكيف تزعمها رجلا ؟

قال : المسألة بسيطة . لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح .
وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة »
قلت : « صحیح . لقد حسبته افغانیة »
فابتسم وهو يقول « لیتک ترى هذا الذى حسبته امرأة حين
بمتطى صهوة الجواد ويركضه الى القتال ويرسل شعره المرجل وينفضه !
اذن لرأيت ، أمامك وحشا مرعبا يميت بدوه بنظرة قبل أن يدفن
في صدره حربته »

قلت : « والكحل ؟ »

قال : « هذا سنة »

فلوحت بيدي ومضيت عنه

ظاهرة عجيبة جدا هذه : النجدى المشهور بوعورة الخلق في
القتال ، يكون في السلم كما رأيت في الحجاز : على حظ عظيم من رقة
الحاشية والدمائة واللين والطراوة حتى ليستحيل عليك أن تصدق

أن هذا الرجل الذى يكاد يسيل من اللين ، يحسن أن يركب جوادا
أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح ، وقد رأيناه يفعل ذلك
كله فكأنما ركب الجواد ألف عفريت ، ولا أكتم أنا خفناه !



في جمرة

بحر بليد - هذا هو البحر الأحمر - بليد كالرجل الذي تعابته
اليوم فيضحك غداً . والبليد صحبته متعبة ، ورفقته مشقة ، فان
حسن الفكاهة ولذتها - كحسن الكراهة - في تبادلها ، لا أن
ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد . وقد ظللنا خمسة أيام نسبح
- كالسلاحفة - على ظهر البحر ، وكانت السفن تمرق بجانبنا
كالسهم - أو كالأرنب مادمننا نذكر السلاحف ، ونحن نتببطأ
وتلكأ وأحسبنا كنا أيضاً نتراجع - ونداعبه ونمازحه وندغدغه
في كل موضع ونتاجيه ونناشده أن يتنبه ونسأله أن يتمطى ويشد
أوصاله ويتحرك . ولكن هيهات ! لم يشعر بنا البحر أولم يحفلنا
وأبت له البلادة أن يتنبه لوجودنا إلا بعد أن بارحنا ينبع ! بعد
ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثائب ! فانكفأ بعضنا فوق بعض ،
وصارت الرؤوس في مكان الأرجل ، وأطلت المعدات من الحلوق
وذهبت الكراسي تقعد عاينا لانحن عليها ، وانقلب اظهر مافينا
وأبرز اعضائنا ، اقدمنا في الهراء فاتقمت بذلك من جور الرؤوس
عليها وطول اغتصابها للراكن الملحوظة

ولم أر أنا شيئاً من هذا ولكنهم حدثوني بما صنع البحر بهم ،
فقد كنت نائماً وكان لي ايضاً غطيط عال يخفت صوت البحر
على ما زعموا ، فجاءني زميل يقول .

« البحر هائج اليوم »

فانتفضت قائماً وقد فرحت وسررتي أن البحر أولانا التفاتاً
، وجعلت أروح واجيء بقدر ما استطيع في هذا الجحر الضيق الذي
يسمونته حجرة النوم وارفع صوتي بقول ذلك البدوي الساذج .

« البحر صعب المراس جداً لا جعلت حاجتي اليه !
أليس ماء ، ونحر طين ؟ فاعسى صبرنا عليه ؟

ولكن متى يا صاحبي فاني ما زلت فيما اشعر على اليابسة ؟ »
قال .. « الم تشعر به ؟ »

قلت « ربما كنت قد حلت - بل انا على التحقيق احلم
بالبحر هائجاً طاغياً عنيفاً ، ولكن البلاء والداء العياء يا أخى انى
انسى في الصباح ما رأيت في احلامي »

فقال . « أوه . هذا كلام فارغ ! لقد كانت الباخرة في الليل
تلعب هكذا (وأخرج قلباً من جيبه وامسك به من وسطه وجعل
يرفع طرفيه على التعاقب) فكيف لم تشعر بذلك ؟ إن هذا
غير ممكن ! »

قلت . « عفواً . لقد فاتني نصف عمرى على التحقيق ، واخشى

ان يضع النصف الباقي ونحن عائدون . ولكنى كنت نائماً هكذا
متعارضاً على طول السفينة . فبينما كانت اقدامكم انتم ترتفع في
الهواء ورؤوسكم تهبط الى حيث تستحق ، كنت انا لا أشعر
بأكثر من حركة التنفس ، او بتقلب بسيط . آه ! لقد تذكرت
الآن انى كنت احلم بأنى اسبح فى الماء واخبط فيه بذراعى . صحيح .
صحيح !

فلم يطق صبراً ومضى عنى . فلبست ثيابى بسرعة وعدوت
وراءه وقد تنبّهت فى نفسى كل غرائز السوء . فلما صرت على ظهر
السفينة - او ما يسمونه ظهرها وان كان فى حبة قلبها - خطر
لى انى لم أر ابداع من هذا الجو من قبل ، وانه لا عهد لى بمثل هذا
التألق فى الشمس والجمال فى البحر . واهى شىء فى الطبيعة افتن من
منظر الجمال الوسنان ؛ ونازعتى النفس ان أعرب عن إعجابى
بكل هذا الحسن فى السماء والأرض . اعنى البحر - فرفعت صوتى
ارىد ان أغنى ، ولكنى لم أدرا ما أقول فأقصرت .

وكنت انظر حولى فأرى رفاقى متشبهين بحديد الحواجز ،
فدنوت من أحدهم وقلت :

« سبحان ربى القادر ! كيف بالله رددت طفلاً لا تقوى على

المشى وحدك ؟ »

قال : ألا ترى ؟

قلت . « ماذا ؟ »

قال . « ماذا ؟ الا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مسدد الى الشمس في كبد السماء ! »

قلت . « معذرة يا صاحبي . لست ارى إلا ذنبها يحاول ان يغطس الأسماك ليصطادها لطعامنا ، ليس هذا من البحر ولكنه من الريان . من أين يطعمنا إذا لم يفعل ذلك ؟ »

وهمت بأن اقول كلاماً آخر اثبت به نظريتي ، ولكن زميلاً غيره القى بنفسه بين ذراعي . فأكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت في سرى بقول الشاعر .

« اشوقا ولما يمض لي غير ليلة ؟

فكيف إذا خب المطى بنا عشراً ؟ »

ثم التفت اليه وانا ارفعه عن صدرى الذى سكن اليه وقلت :
« اسعد الله صباحك ! جو بديع » .

فوضع كفه على معدته وهو يقول « آه يابطنى ! » وذهب يتخطر .

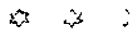
واشتاقوا جميعاً إلى معانقتي وانا واقف امام الباب اتلقاهم بين ذراعي مسروراً واهش لهم واقول للواحد بعد الآخر .

« هدى روعك ! انى مقدر عواطفك نحوى ، ولكن لا داعى الى العجلة فان الوقت امامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة . »

فلا يزيد على ان يضع كفه على بطنه ويقول . . آه يابطنى !
نخطر لى ان بهم عضة جوع ، فلما تلقيت آخرهم - وكنت قد
فطنت الى هذه الحقيقة - قلت له .

« نهارك سعيد . لقد كنت تريد ان تقول »

ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته . « آه يابطنى »
فعرفت انى مصيب فى إحالة مظاهر شوقهم الى شخصى الضعيف
على الجوع . على الرغم من تأكيد احد زملاء ان البحر هائج وان
وجه « دفين » .



ولم نخف لرؤية جدة لما شارفتها ، ذلك ان الساعة كانت الحادية
عشرة صباحا ، والخادم كان يعد المائدة للغداء قبل مواعده ، فقلنا
هذه بشرى ، وجلسنا اليها . وحضر الطعام فلم نبال جدة كيف تبدو
ولم نكثرث لمرفئها اين رست السفينة منه ، فقد أقبلنا على الصحاف
« نأكل ما لا يحسب الحاسب » كأنما خفنا الا نقع فى جدة على
طعام ، فرحنا ندخر ما يكفى اياما ، وجعلنا نلتهم الشبايط
(السمك) والفراريج (الدجاج) بلامضع مخافة ان يدركنا وفد
مستقبل فيشاركننا ، وصح فينا قول ابن الرومى .

« فكاه كالعصرين من دهره كلاهما فى شأنه دائب
ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة ارنبها ضاغب

تعلموه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب
وصدق فينا المثل العامى (وقت البطون تضيع العقول) . فلما
صعد الطبيب الى الباخرة ودخل علينا ادار عينه فينا ولم ير احداً
رفع راسه فقال ،

« ماشاء الله ! ماشاء الله ! الحمد لله على السلامة ! »
وكانت الأفواه فى شغل بما فيها فرددنا بأيدينا واستأنفنا العمل
فقال .

« صحتكم طيبة والحمد لله » .

« مش بطالة : نحمد الله على كل حال » .

فقال « لعل البحر كان هادئاً » .

فلم يسمع سوى صرير الأضراس . فارتد مسرعاً ، وأكبر
الظن انه اندر قومه :

« أكل يتامى ما لهم كاسب » .

فقد خف الى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها -
جاءوا ، كما أرجح ، لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافي ونغوص وراء
الراسب ، ونعمل اضراسنا فى الجامد ، ونعب فى الذائب ، ولكننا
عجلنا قبل مقدمهم ، وفرغنا من هذا الشأن قبل ان يضعوا رجلا
على سلم الباخرة ، فلما صعدوا إلينا الفونا جلوسا الى المائدة ، ونكن
المائدة لم يكن عليها شىء ، ولم يكن يبدو علينا أثر من آثار الغارة التى

شهدها الطيب ووصفها لهم على التحقيق ، فنهضنا لاستقبالهم في وقار وأبهة ورحبنا بهم وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذي سمعنا به . وهم يحسوننا بعيونهم ويستدرجوننا ، ولكن هيهات ! فالتخادعوا وشكروا فيما رواه الطيب لهم

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحاح . وامطرتهم كالم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم . فقلت : « اتوذبالله » فقال أحدهم : « بل حمداً لله وشكراً »

واستبشروا بنا ونفأءلوا خيراً بقدمنا ، وأنساهم السرور بالمطر هول ما سمعوا عن كراتنا على الطعام . وأشرق وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم . وانحدرنا الى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة . وكان جارى فى الزورق أميراً نجدياً محرماً وفى يمينه بندقية ، فلم أرتح الى جيرتها وقربها من صدغى ، فقلت له فجأة :

« هذا فلان يسلم عليك »

فاضطر أن ينقل البندقية الى يسراه ليصافح صاحبي ولصقت به حتى لا أدع مكانا تعود اليه اذا فكر فى تحويلها الى حيث كانت . ولو أن الزورق سار فى خط مستقيم الى « الرصيف » لبلغناه فى ثلاث دقائق ، ولكنه اضطر أن يدور بنا حول الميناء فقطعنا

المسافة في خمس وعشرين دقيقة ، لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التي تقطع الحديد كالسيف . وقد فكرت الحكومة في اصلاح الميناء فخطر لها على ما علمت أحد أمرين أن تطهرها وتعمقها ، وهذا باهظ التكاليف ، أو أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة . وهناك رأى ثالث سمعت به ولا أدري الى أي حد ينظرون اليه على انه اقتراح جدى ، وهو أن تبني الى جوار جدة مدينة جديدة على البحر يكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور ، فان انشاء مدينة جديدة أيسر وأقل نفقة وتعبا من اصلاح مدينة قديمة تهدمها شيئا فشيئا واقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلا عن اصلاح الميناء وهو وحده مشكل . وكان يستقبلنا على الرصيف قائمقام جدة الشيخ عبد الله رضا الزينلي ولفيف من الأعيان ، وبيأنى الكلام عليه فبما بعد فصعد بنا الى بناء فيه موظفو الميناء وجلس معنا فى الشرفة الى أن قرب الزورق الثانى فاعتذر وخف الى استقباله . وتركنا مع المستر فيلي وحقى افندى سكرتير القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعا حديث الا هذا المطر العجيب التى سبقنا . وكانت تحيتمهم لنا «جئتم بالغيث» . ولهم العذر ، فان بلادهم صحراء جرداء ليس فيها نهر أو جدول واحد ، واعتمادهم فى معاشهم على المطر والآبار ، فاما المطر فلا سلطان لهم عليه . وأمره بيد الله

وأما الآبار فقد كان عددها كبيراً وكانت العناية بها شديدة ، ولكن
الانتراك لما اضطروا الى الانسحاب من بلادهم في ابان الحرب
العظمى ، خربوا أكثرها حتى لحقت معالم عدد ليس بالقليل منها ،
وعلى أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد ، لأنها تجف
وتتشف ، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية في الآبار
الارتوازية وفي استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من
جوف الأرض ، واستوردت عدداً منها واتخذتها بالفعل في المدينة
ومكة ، وهذا خير ما يسعها الى الآن ، مع انعناية بالعيون وتعهدتها
بالاصلاح .

وليس في جدة فنادق ينزل فيها القاصدون اليها ، وإنما ينزل
الناس في بيوت الأهالي ، فمن شاء استأجر منزلاً بأسره ، ومن كان
لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة ، على مثال « البنسيون » في مصر
مع فزوق طبيعية . أما نحن فكنا ضيوفاً على الحكومة ، وكان
العزم أن ينزلونا جميعاً في بيت واحد ولكن الأعيان تراحموا علينا
فقسمونا ثلاث فرق . واحدة في بيت الشيخ محمد نصيف وهو
من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة
هي أكبر مثيلاتها في الحجاز ، وفي داره ينزل على ما سمعنا جلالة
الملك ، عبد العزيز حين يكون في جدة . والفرقة الثانية في بيت
الشيخ الفضل ، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة ، والباقون

سته كان من حسن حظي أني أحدهم ، نزلوا في دار حسين أفندي العويني ، وهو شاب سوري الأصل نزح الى جدة لاسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة ، وسيجيء عليه كلام .

ولم نكد نستقر في بيوتنا حتى قيل لنا : الى بيت القائمقام ، فمضنا وركبنا السيارات الخاصة التي أفردت لنا ، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة ، وأقول نخوض ، وأنا أعني ما أقول ؛ فقد خيل إلى أني في البندقية وأنا أحوج الى القوارب والزوارق - أو الجوندولا - منا الى السيارات . وكانت العجلات تغوص في الماء الى النصف . ولشد ما عجبت حين نظرت فاذا سائق السيارة صبي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . تخفت أن يقلبنا في الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة . ولكنه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجنب الحفر ويتقى أن يرجنا . هذا على أن رأسه لم يكن ظاهراً لنا لصغر جسمه ، فلا أدري كيف كان يبصر الطريق ، وكأني به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه . وكان بارعا في محاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط ، فلم يسعني إلا أن أسأله :

« هل تعرف الطريق الى مكة ؟ »

فقال : « أي نعم . متى تذهبون ان شاء الله ! »

قلت « وفصيح أيضاً ! » ورقص قلبي اعجابا بمهارته وذلاقة لسانه

وحدثتني النفس أن أخطب ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم في حقيقتي وأعود بهم الى مصر ، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم .

واستقبلنا القائم مقام على باب داره ، وتلكأت ادير عيني في البيت من الخارج فارتد الى وتناول ذراعى ومضى يصعد بي السلم ، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها ، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين ، ومع ذلك كان يثب على السلالم وأنا أرفع نفسى بجهد واضح ، وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق ، لان الدرجات عالية جداً . والبعض أعلى من بعض واضيق ، - وبعضها طولى او أقل قليلا - الى انى ، وقد قلت وانا الهث بعدان بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال . لقد نجحت فى الصعود . ففى وسعى الآن ان اشترك فى الالعاب الاولمبية . ولم أكن ادرى الى تلك الساعة ان الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثره للسلالم . وان النازل اذا لم يحذر خليق ان يهبطها مدحرجا عليها . وقد وجدت بالتجربة ان آمن طريقة للصعود هى الزحف على اليدين والرجلين . واستغربت كثرة الابواب للبيت الواحد ، وتعدد السلالم ، فقد تكون صاعداً فى وديعة الله وحفظه ، واذا امامك سلماً يذهب كل منهما فى ناحية فلا تدري ايها تأخذ : هذا او ذاك ؟ وخطر لى فى اول الأمر ان سلماً يؤدي الى حجرات الرجال ، وان

الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضاً ان الاكثار من السلام المضلة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثر آمن ايام القلق وعدم الاطمئنان ، ايام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، و يكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سرهم فلا يبعدان يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ليتسنى لهم ان يجدوا لهم ولذويهم مخرجاً او مهرباً اذا اقتحم عليهم الدار عدو ، اولعل الخاطر الأول هو الأصح فما ادرى ولا وجدت من يدرى . ومهما يكن من ذلك فان الدار هناك داران على الحقيقة ، وهى تبتدىء واحدة ثم تتشعب وتتعدد . ولا بد لهذا من حكمة خفيت على . اما السلام فلا حكمة لارتفاع درجاتها الى هذا الحد المرهق الا ان تكون حكمة التزهيد فى مكابدها مرة ثانية . وما اكثر ما كان يخيل الى ، اذ نزل من احد البيوت ، اننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه ، حتى خطر لى ان ارسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين .

وبيت القائم مقام النموذج حسن لغيره من الدور التى رأيناها مع تفاوت بينها فى السعة ؛ وطرازها جميعاً شرقى عتيق ، واقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة فى احيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش . وللبيت بوابة تفتح وتغلق وتغلق اكثر مما تفتح . وفيها باب صغير يسمونه فى مصر ، الخوخة ، ثم الفناء فالسلم الذى

وصفناه لك ، ثم طبقات يغلب ان تكون اثنتين او ثلاثا ، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا ؛ وغرف المائدة فى التى تحتها ، وقد يجتمعان فى طبقة واحدة فتفرد الأخرى للنوم ، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم ، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم عن الخيلاء والذى هو اشبه « بالاعلان » ولا تلك الكزازة التى تقبض النفس وتصد القلب . وكرم العربى ليس ككرم سواه فهو يكرمك ويبذل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق ما فى مقدوره ، ثم كأن الذى يصنع هذا سواه ؛ من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر . وقد كنت كلما دخلت بيتاً يختلط على الأمر ، فأحسبه بيت رجل آخر غير الذى اعرف انا مدعوون عنده ، ذلك ان مضيفك لا يثقل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه او يؤكد وجوده ، ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن حريرتك فى حديثك وجاستك وفيها تشتهى نفسك ، غير محدودة . وكان القائم مقام على سنه وتقدمه وسمته وابهته يخف الى « الشيشة » ويجثو حيا لها ليصاحبها او يصنع فيها مالا أدري فلست من هوانها ، و كان الواحد منا يهيم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيهاً له عن هذه الخدمة ، ولكن شيئاً فى عينيه كان يقعد بنا ويغلنا عن الحركة . ولم أر فى حياتى وجهاً ناطقاً بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب

الذى يريد ان يفيض على العالم كوجه هذا الرجل ، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره ، فلما قال لنا المستر فيلبي . إن القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنا نعرف هذا من قبل . وقد كان قائم مقام فى عهد الحسين وابنه على المعزولين ، فلما جاء ابن سعود أقره فى منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لآمعنى لهما ولا دافع اليهما سوى الهوى ، وليس كل ما يروع المرء من التآمر مقام دماثته وسجاجة خلقه ، فان نشاطه وحيويته شىء عجيب ، لا لمن كان فى مثل سنه العالية بل لآى انسان فى أى سن ، ثم هو الى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها ، عارف ببنائها ومساعيها لطيف الحديث حلوا المحضر ، بزبده وقاراً قليل من الصمم ؛ وسنه ابدأ ضاحكة وعينه براءة ، فما اشوقنى لأن اراه وهو تأثر الغضب . وكان قد اعد لنا غداء ولكننا قلبناه عشاء فقيل . « حسن . الساعة الأولى اذا »

فملت الى جارى وقلت .

« سنموت هنا جوعاً »

فقال بلمهجة الفزع . « كيف ؟ لماذا ؟ »

قلت . « الم تسمع ؟ العشاء الساعة الأولى . نحن الآن فى

الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتى عشرة ساعة او أكثر حتى

نأكل مرة اخرى . هذا صيام ولسنا في رمضان وانا محتج «
قال . « مهلا مهلا ؟ انها الساعة الاولى بالحساب الشرقى اى
بعد المغرب بساعة »

فاقترح واحد ان نصلح ساعاتنا وان نجريها على الحساب
الشرقى ، فسألته كيف نفعل ؟

قال . « تعتبر ان الشمس تغيب الساعة السادسة - صيفا او
شتاء . هكذا يفعلون هنا . المغيب الساعة السادسة (افرجية)
بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فأجر حسابك »

فحرت لأن الشمس تغرب في الوقت الذى تشاء . لا فى
الساعة السادسة كما يريد اهل الحجاز ، وكانت ونحن هناك
تستحسن ان تغيب فيما بين الخامسة والسادسة ، وهى فى الصيف
تتلكأ احيانا الى السابعة فلم ادر ماذا أصنع ؟ اتكون الشمس
غاربة واقول انا - مجارة لساعات الحجاز - انها لا تزال طالعة ؟
ثم كيف اوفق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعينى ؟ الحق ان هذه
كانت عقدة .

وبما صرنا فى بيوتنا قلنا نزور القنصلية ، ونؤدى واجبنا ونحى
بلادنا فيها ، وكان المطر قد عاد ينهمر ، فسألنا حسين افندى العوينى
« هل القنصلية بعيدة من هنا ؟ »

قال . « لا . . (مخطوطة) ليست بعيدة ولكن المطر شديد والطريق

« وحال »

وقام الى التليفون - اوالهاتف كما يسمونه أحياناً - ليدعو سيارات لتقلنا الى القنصلية وليس للتليفونات او للهواتف ارقام تتميز بها ل عليك ان تدق الجرس فيجيبك « المركز » - وهو يقابل عندنا لسنترال - فتطلب منه ان يصل ما بينك وبين فلان في بيته او دكانه ومكتبه او عيادته - كما تشاء و يبطنىء عليك العامل فتناديه : « يا فلان اذا جرى؟ اعطنى بيت فلان واصنع معروفاً ذلك انك تعرف. عامل التليفون - لاعاملته - كما يعرفك . وكان المطر قد أفسد سلاك التليفون وعطل المخابرات ، فوقف حسين افندى العوينى ساعة يعالج الكلام - ساعة كاملة بلا ملل او ضجر ومن غير ان يفكر لحظة فى الجلوس او الاستراحة

واخيراً بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها وصاح حسين افندى بالسائقين .

« الى القنصلية المصرية »

فدارت السيارات وتحولت امام البيت، ثم جرت امتاراً ووقفت وقيل . « انزلوا ! تفضلوا ! »

قلت . « ماذا ؟ هل اصاب السيارات عطب او تلف ؟ » ، قالوا « بل وصلنا ! »

وصلنا ؟ نعم . فما كان بين البيت والقنصلية التى ركبنا اليها ،

بعد لآى ، سوى عشرة امتار !

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (افرنجى)

الآن فانهضوا الى العشاء فى بيت القائمقام .

فقيل . بل لا يزال الوقت فسيحاً ولم تستوف الساعة الأولى دقائقها

قلت . ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تماما .

قالوا . كلا لم تغرب إلا منذ نصف ساعة .

فأسلمت أمرى لله ولساعات الحجاز التى لاتعبأ بنهار او ليل

والتى يجرى الزمن على وجهها كما لا يجرى فى بلادنا على وجوه
ساعاتنا .

وليس فى نيتى ان أصف كل وليمة حضرتها او دار دخلتها

فان هذا لا آخر له ، فقد كنا تتغدى فى بيت و نتناول الشاى

فى بيت والعشاء فى ثالث ، وربما تغدينا فى جدة وتعشينا فى

مكة ، او بالعكس . ولكنى سأذكر القليل الذى يدل على

الكثير وينبئ عنه . فقد سمعت ان فريقاً من المصريين

لا يصدقون ان أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة

فلهؤلاء اقول . ان الحجاز ليس مجهلاً من مجاهل آسيا او

أفريقيا ؛ وانه وطن الاسلام واليه يحج المسلمون من اقاصى

الأرض وأدانيها وأنه بلاد متحضرة سوى أنها فقيرة ، والفقر لا يمنع الأناقة ولا يحول دون التهذيب ، ومن الغرور الذي لا يشرف صاحبه ان يتصور المرء ان الحجاز ، لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مصيفاً او مشقى للمترفين منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهي . يجب من اجل ذلك ان يكون مستوحشاً وعلى الفطرة الأولى . وليس في الحجاز فنادق او مطاعم عامة ، ولكننا دعينا في كل مكان حتى في قلب الصحراء ونحت الخيام - الى موائد على الطريقة الغربية عليها من الآكال مايندر ان تقع عليه العين او يذوقه اللسان حتى في مصر المتحضرة .

وهم لا يراعون في الجلوس الى الموائد ترتيباً معيناً ، وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدق مجاملة من أن يتوخوا ترتيباً . وكان من شاء يجلس حيث يشاء ، حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بايثار . والقوم في الحجاز لا يأكلون سوى مرتين في الإربع والعشرين ساعة : مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة . وأحسب أن جو البلاد هو الذى افترضى هذا التخفيف ، ولكنهم توخوا مثل عاداتنا في مصر من أجلنا . وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا .

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الإسلام وبين العربى والتركى . وقد يحدث أن يقدم لك بعد بضعة

ألوان طعام حلو فتحسب أنك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المعدة بألوان عدة لا آخر لها واذا بهم بعد الحلوى يكرون الى اللحوم والخضر وما الى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا في مصر في الأعراس على الطريقة التريية القديمة .

وأحب أن أعين القارىء على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيها . فأقول ان الطرق غير مرصوفة كما هي في مصر ولكنها نظيفة على الجملة ، وقد أصارها المطر بركا وبحيرات ، وهو مطر ملاء صهاريج الشجر كلها ، ومن بين هذه الصهاريج واحد سعته بحسابهم - مائتان وأربعون الف « صفيحة » فاذا اعتبرت أن « القربة » تعادل اربع « صفايح » كانت سعة الصهاريج ستين الف قربة ، وقد قيل لى ان الماء الذى فى الصهاريج يكفى موسم الحج ، وانما ذكرت الصهاريج ودثلت لسعتها ليتسنى للقارىء ان يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع ، فقد هدم بيوتا وقوض سقف بعض الأسواق ، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه ، والبنى هناك ضعيفة ، وقد قضينا الليلة الأولى فى جدة فأصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفون لأوحال ، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة . واحسب نهم ضاعفوا الهمة من اجلنا ، ولكنه نشاط على كل حال .

والأغنياء هناك لا يدعون الفتم ولا يكتمون ما لهم وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ . والتجارة سوقها رابحة

مع الغرب والتمرق . والأحاديت صريحة والألسنة طليقة ، وفي هذا دلالة على الاطمئنان ، وقد كان الناس على ما علمت في العهد السابق يخفون اموالهم و يتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز او الاقتراض الذي هو في حكم الاغتصاب والمصادرة ، اما الآن فيقول لي بعض الأصدقاء : ان الحكومة في آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج الى المال فتقترض من الأعيان حتى اذا جاء موسم الحج ردت اليهم ما اقترضوها بلا ربا

وقد سألتنا — في طريقنا الى مكة — سائق السيارة وهو شاب حدثنا انه كان احد افراد الفرقة الموسيقية في جيش الحسين ؛ عن الفرق بين العهدين فكان جوابه ان الأمن مستتب على احسن حال وانه ما من احد يجرؤ ان يسرق او يمد يده الى شيء في الطريق

فقلنا له . وای العهدين خير

فقال . «لكل زمان دولة ورجال»

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله

عما يعنى .



بين جدة ومكة

الأرض - في جدة - دائرة . هذه حقيقة لم يسعنى ، بعد يوم واحد ، إلا أن اسلم بها وأقطع بصحتها . وقد تكون الأرض هناك كروية أيضاً - أو كرية ، فما أدري أيهما الذى لا غبار عليه - بل هى كروية أو كرية فى بعض المواضع ولا سيما فى الشوارع ولها محاور حقيقية لاخيالية وإن كانت لا تدور عليها ، ولكنها دائرة على التحقيق ، اذا كان هناك شك فى كرويتها ، على الأقل كلها . وما أسرع ما فطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة فقد كنا مدعوين الى الشاى فى وزارة الخارجية ، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أر السيارات ، فرددت البصر الى التليفون فاذا هو لا يزال فى مكانه ، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضراً ، والتليفون فى الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا ، ويحتاج الى معارف لم يتسع الوقت للاحاطة بها ، وكان الخادم قريباً ولكنى استحييت أن أطلب ، معونته لئلا يتوهمنا بعض الهمج من افريقيات . فسألت الله العون ومضيت إلى التليفون ودققت الجرس مرة ، فلم يجبنى أحد ، فدققته ثانية فلم يعبأ بي مخلوق ، فهزرت « الشنكل »

وأنا يائس ، أقول لنفسي أنت من لا يحفل الجرس أولى به ألا
يكترث «للشنكل» وعاودت الدق والهز مرات ، ثم وضعت السماعة
وجلست الى جانبه .

فقال لي أحد الحاضرين :

« لم سكت ؟ دق له ! »

قلت : « أأظل أدق الى المغرب ؟ »

قال . « لاسيدى . دق الجرس وناده ! »

فراقني هذا ونهضت مرة أخرى وعدت الى الجرس أدقه واقول :

« يا أخانا ! يا حبيبي ! ياسيدى ونور عيني وتاج راسي ! »

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة ، فقلت أخاطبه بالعامية

لعله لها أفهم .

« يا أخينا ! إنت يا شيخ انت ! ياللى جوه ! نبحت حسي

ووجعت قلبي . رد يا أخى بقا ، الله يقطعك ! »

فلم تنفع هذه الرقية ، وهممت بالقعود مرة أخرى فقال صاحبي :

« لالا . ناده باسمه يا أخى ! »

قلت : « حسن . وهل مفروض فى المصرى الذى يأتى

الى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون ؟ لا بأس ! » ووضعت فمى

على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من الأسماء لعل واحداً منها

يوافق الصحيح .

« يا محمد . يا ابا بكر . يا عمر . يا عثمان . يا علي . يا معاوية .
(لزملائي : يظهر انه أعجمي) يا ناصر خان . يا أزدشير . يا شتربة .
انطق قبحك الله ! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد أطار هذا
اللعين محفوظي ؛ لا بأس) يا بطليموس . . . »

وهنا قاطعتني صاحبي وانتزع الساعة مني ووقف يقول

« يا مركز . . . يا مركز . . . »

فسألته « هل هذا اسمه ؟ »

فلم يعبأ بي وهضى يقول .

« أجول لك . يا مركز . أعطني القناعة . نعم القناعة . رجاء »

فوصله بشركة القناعة للسيارات .

ولكني لم أركب سيارة ، لأن الجهد العقيم الذي بذلته أمام
آلة التليفون أحوجني إلى الرياضة فقلت أتمشى إلى الخارجية فهي
قريبة منا . فوافقني اثنان وخرجنا وسرنا على بركة الله نميل مع
الطريق حيث يميل ، ويصف بعضنا لبعض ما شاهد إلى الآن
وماذا كان وقع ذلك في نفسه ، وطال الأمر علينا وخيل إلى أننا
ندور ونعود إلى حيث كنا ، فخطر لي أن أسأل لنهتدي ، فانتظرت
حتى لقينا فتى فقلت له :

« هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية ؟ »

فخملق في وجهي وقال .

« إيش تقول ؟ »

قلت : « وزارة الخارجية التي فيها حضرة صاحب المعالي

الوزير ف... »

فجذبني أحد الزمبيلين وقال .

« يا أخى انت فين ؟ »

فغاضني ذلك واستثار عنادى فقلت :

« أسكت أنت من فضلك . قل لى يا صاحبي . صف لى الطريق »

فقال كلاما مغممها قدرت انه الوصف الذي أطلبه وأشار بيده

فقلت لصاحبي .

« هيا بنا . لقد عرفت منه الطريق »

فقال أحد الرفيقين :

« ولكن ماذا قال لك ؟ »

قلت : « إن ما قاله لى لايهم . ويكفيك أنى فهمت مراده . »

فقال : « ليتنى على يقين من ذلك . فان الواقع أننا نسير فى

دائرة . وقد رأيت هذا المسجد أربع مرات على الأقل . »

فأكدت له أن هذا كذب لا يلىق ولا يشرف بلاده التي

يمثلها هنا ، وان كان لم يعد الحقيقة فيما قال . وصار لا بد من

اجتتاب الرجوع الى هذا الشارع اذا أردت أن لا يشمت بي

صاحبي . فملت بهما الى طريق جديد لم تضرب فيه من قبل واذا

بنا بعد ثلاث دقائق نعود إلى المسجد .
فقال صاحبي بلهجة الشامت المنتقم :
« ماقولك الآن ؟ أليس هذا هو المسجد بعينه ؟ هذه خامس
مرة أراه في ثلث ساعة »
قلت : « محال . أنه ليس أكثر من المساجد في هذه البلاد
وهي جميعاً متشابهة » .

واسكته بهذه المغالطة وعمدت الى أول رجل صادفنا بعد
ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة الخارجية ، فصاح بي صاحبي :
« مادمت تقول « وزارة الخارجية » فلن يفهم كلامك أحد .
يا أخي أنت في الحجاز لا في مصر »

وهكذا ظللنا نسأل والناس لا يفهمون عنا وأخيراً يشيرون
بايديهم فمضى ونكر الى حيث بدأنا . فاقترعت بحقيقتين : أولاهما
أن الارض هنا دائرة في كل ناحية . وقد أسلفت القول في ذلك :
والثانية أن على من يسأل الناس عن الطريق أن لا يسير الى حيث
يشيرون .

والمدهش أننا مررنا بالخارجية وكننا نسأل الناس عنها ونحن
واقفون أمام بابها ! وفي آخر مرة كنا على افريزها ، لأن سيارة
كانت مقبلة نخفنا أن ترشنا عجلانها بالوحد فصعدنا فوق الافريز
لنتفقد ذلك واذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا .

وقد رأيت « برج بيزا » المائل ، من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لا أدري ماذا يسمونها هناك . وكنا نتناول الشاي جماعات وجماعات على موائد صغيرة ، وكنت قريباً من النافذة فنظرت فإذا مأذنة مائلة جداً . فأطلمت النظر إليها وأنا أتوقع ان تنقض . فقال لي جارى :

« ماذا يروك ؟ »

قلت : « ألا ترى هذه المأذنة المائلة ؟ إن أمرها عجيب . ولا أدري ماذا يمنعها أن تسقط ؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا »
فنظر جارى وعجب ، ومن حقه ذلك ، فقد كان انحرافها شديداً ، فسألنا واحداً من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحج وقال كلاماً لا يقنع ، واعتذر بأن المباني فى الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمباني مصر ، فبينما له أن المتانة والجمال لا شأن لهما ولا قيمة ، وأن المسألة أن هذه المأذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة فى الهواء لأن مسقطها خارج القاعدة ، فاذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولا شك ، ومن حق الحجاز حينئذ أن يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه .

ولما صرنا فى الطريق مرة أخرى رفعت عيني الى المأذنة فإذا هى مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف ، فرجعت أعود الى الخارجية فإذا هى تبدو من النافذة مائلة ، فأنحدرت الى الشارع وأجلت

النظر في بناء الخارجية فلم أر شيئاً يلفت النظر فحرت ، وأخيراً بعد أن حاورتني المأذنة وخايلني حتى كاد يطير رأسي حملت اللغز . ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة ؛ فإذا جلسنا فيها بدت لنا الأشياء منحرفة .

وخرجنا يوماً نتنزه على امتداد الشاطئ فيها وراء جدة ، ولجدة سور قديم لاخير فيه اذا كان المراد به الحماية ، وكان هناك - في السور - باب كبير للدخول والخروج ، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين الى مكة أو المدينة ، فلما جاءت الحكومة السعودية رأيت أن باباً واحداً لا يكفي ، ففتحت بوابتين كبيرتين : واحدة للدخول والثانية للخروج ، وأقامت بينهما مخفراً يسأل الرأح والغادي ويرقب الحركة بينهما ، والأمر تافه لا يستحق الذكر ، ولكنه بعض التنظيم الذي أدخلته الحكومة السعودية وارتاح به الناس ، وهم هناك يضيفون هذا الى امثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الاصلاح ، بقدر المستطاع .

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر ، والبعض جدرانها - إن صحت التسمية - من جوانب صفايح الغاز ، وسقفها كذلك من الخيش أو هذه الصفايح ، وبعض البيوت من اللبن ، وخلال هذه البيوت الغنم والجمال ، وحولها

الكلاب ، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح . وقد وقفنا تتأمل هذه البيوت المتقوضه وخيل الى وأنا أحقق فيها أنى صرت للشعر العربي أحسن فهماً . بعد أن رأيت بعيني ما الطلول الدوارس ، وهو احساس ظل يلازمنى وأنا فى الحجاز فكلما رأيت منظرأ من الجبال أو السهول والأودية أو الكشبان أو المراعى أو الدور أو الخيام ، زدت شعوراً بصدق تصوير العرب لحياتهم فى أشعارهم ، ولم أستغرب شيئاً مما كنت أمله واستثقله من لجاجتهم فى وصف الطلول والاسفار والرواحل والولع بذلك وإيثاره وتقديمه ، وصار لهذا وما اليه معنى جديد عندى ومساع الى نفسى ، وقد كنت حين أطالع شعر العرب - قدماء أو مولدين - أتخطى هذه الأوصاف اذ كنت لأجد فيها متعة ولا أراها تنقل لى صورة لها قيمتها فى نظرى ، فالآن أعود الى هذا الشعر الذى كنت لأطبقه فأرى الحياة تدب فيه وتفيض منه ، وإنما أعنى شعر القدماء لا المقلدين من المولدين أو المحديثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحبية ، ومركز للاسلكى وحظيرة للطائرات . وليس فى هذا كله ما يستوقف المرء ، فما منه شىء غريب ، ولكن هناك أيضاً على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسور سد بابيه بالحديد ، وكان الناس يفدون

اليه زائرهن بل حاجين ، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء ، وقد هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شيئاً ، ومنعوا الناس أن يزوروه . وحدثني بعض من شهدود قبل تقويضه أن طول القبر أربعون قدماً ، وأنه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها الى آخر جسمها ، وكان الاعتقاد السائد أن أمنا حواء بهذا الطول ، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولاً وعرضاً ، فإذا صح هذا ، فقد كانت أمنا إذا مهولة ، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق وأن تكون أم هذه الأناسى كلها في الشرق والغرب . فليت من يدرى كيف كان آدم ؟ لاشك أنه كان الخفل وأهول ، ومع طولها وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة . فليست العبرة اذن بالطول ؛ وفي هذا عزاء لى عن قصر قامتى ! .

ولم أر فى الحجاز امرأة ولا بائعاً متجولاً ولا شيخاًهما يقوم على الراحتين ، ولا جنازة ميت ، فأما المرأة فلم استغرب الحجاب المضروب عليها ، فنحن فى مصر لا يزال منا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب . وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد اليهم فى مدينة صغيرة لم تتباعد أطرافها ولم تفش فيها المدنية ولا يزال الزمن يدور فيها متمهلاً متباطئاً . ولعلى لم أر مقعداً أوسطيحاً أو كسيحاً لأنى لم ابغهم حيث يكونون ، ولكنهم على كل حال لا يرون فى الطرقات وعلى ابواب المساجد وافاريز الشوارع .

ولكنى استغربت ان أقضى ستة ايام فى الحجاز فلا تقع عبنى على جنازة ميت ولا اسمع ان واحداً مل هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة، ولا أدرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ويحبب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون ان ينتقلوا فى طرفه عين الى الفردوس وقصوره وحووره وولدانه وانهاره من لبن وعسل وخمر! ولقد اضطرت ان اسأل عن ذلك فضحك الرجل وربت لى كتفى وهم أن ينصرف عنى ، ولكنى تعلقت به وسألته .

« اصدقنى . هل أنتم تموتون فى سر كم ؟ »

قال : « فى سرنا ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت : « أعنى انكم تموتون أولاً تموتون »

قال : كيف لانموت ؟ ان الموت حق »

قلت . « لست اراه حقاً هنا »

قال . « استغفر الله العظيم . يا رجل ؟ »

قلت . « استغفر الله الف مرة . ولكن لماذا لانموتون ؟ »

فقال مبتسماً . « هل تكره لنا الحياة ؟ »

قلت . « لأأكرهها لكم ، ولكنى أكره أن نموت دونكم . لماذا

يكون الموت حقاً علينا وحدنا ؟ »

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط ، ليقنعنى . حتى ذلك

الطبيب الذى كاد يقتلنى بمصلية ، لم تهن عليه نفسه ولو اكراما

لخاطربا أو في سبيل التدليل على صحة النظرية - فهى في الحجاز
نظرية فقط - القائلة أن الموت حق . كأن وظيفة الطبيب أن
يميت ولا يموت .

وسيد كرنى الحجاز دائما بأن عصاى قطعت الطريق بين جدة
ومكة - قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت
الناس من الجانبين ، ووقفهم صفيين من الناحيتين متقابلين على
أقدامهم إلا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ويسبر على نهج
جديد .

وشرح ذلك أنا فى اليوم الثالث تغد بنا عند الشيخ الطويل ،
صاحب شركة القماعة للسيارات ، وقد كان على عهد الملك حسين
مديرا للجهارك وكان صاحب مال وفير فأنى عليه الاقتراض منه ؛
فلم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه على ومجىء العهد السعودى
بالأمن والطمانينة وحرية التجارة . فاحر بالسيارات وعاد فوقف
على رجليه . وكان المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ،
ولكن الأكل طال والألوان تعددت فسينا مكة وذهلنا عن كل
شئ ، وأخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين ، وذهبنا الى
بيوتنا فخلعنا ثيابنا ونضونا كل ما على أجسامنا ولففناها - أعنى
أجسامنا - فى مشامل - كالبشا كير - غير مخيطة ، حتى اقدامنا

خلعنا احد يتها واعتضنا منها السباعيات ، وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل فى بعضها الاصابع ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرايشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائق وتوكلنا على الله .

وركبنا سيارة لا أدرى من أى طراز هى ، وانما الذى أدريه انها كانت نعمة وجديدة ، وأنهم نخرج إلا فى يومنا ذاك . وقلنا للسائق سر على بركة الله وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، واعلم اننا سنتعشى عند سمو الامير فى قصر جلالة الملك باذن الله . وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب فقال : « الله معنا . ان السيارة جديدة وليس فى وسعى أن أسرع بها لئلا تتلف »

فقلنا . « فلتتلف . فان موعد الامير لا يمكن ارجاؤه » وما زلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو . وجزنا أول محطة فى الطريق ومضينا نبغى الثانية واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول . « حريق . انزلوا »

ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت ، ويظهر أن عصاى التى لم أعن بها من فرط الفرع ، سقطت الى الأرض ، وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة ان ننظر اليها وان نرى الدخان

صاعداً من بين عجلائها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضاً عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد ادركتانا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض الهندي المصور أن يرسمنا ونحن محرمون .

ولأبطال . ركبنا السيارة واستأنفنا السير - على مهل . وأنسيت العصى لأن الخوف من احتراق السيارة صرفني عنها ، وجعلت وكدي طول الطريق ان أخرج وجهي من نافذة السيارة وانظر الى العجلة من ناحيتي وان اشم . لعل دخانا صاعد فأنبه السائق . والطريق الى مكة طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه « وابور الزلط » وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل . والآجر للجبال والمشاة ، على يميننا ويسارنا . والجمال التي رأيتها صغيرة وهي أتبه بالبعران في بلادنا ، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت . وهي تسير قوافل قوافل . وقد عدت خمسين جملاً في قافلة . وكانت تحمل بضائع شتى في الصناديق والاكياس أو الغرائر . وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغربية

وليس أحلى ولا أفن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل . والطفل لا يبرك الجمل حين يريد أن يصعد الى ظهره . وإنما يعمد اليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا

لذيل حبلا أو سلما أو مرقاة مستعينا بقدميه بخطوبهما على نخدى
البعير كأنهما جداران ، ثم اذا هو فوقه . وأمتع من ذلك وأبعث
على الدهشة أن ترى بعيراً على سنامه رحل وعلى عسيبه - عظم
الذنب - طفل والعسيب منحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها
الطفل وماذا يمسكه فوقها ؟ ساقاه يتبض بهما على الجانبين .

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق - اذا اعتبرنا ساعتى
وهى بالحساب الغربى - وقبله بأكثر من نصف ساعة إذا اعتبرنا
أن الحجازيين يحتمون على الشمس أن تغيب فى الساعة السادسة
لا فى منتصفها . وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض
من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا ، وبينما نحن نتحدث دعى
مدير الشرطة أو لأدرى من هو الى اتليفون ، فأستأذن
وذهب ثم عاد يسأل :

« هل لأحدكم عصى ؟ »

قلت « نعم انا لى عصا ولكنها والله فى السيارة . تركتها فيها ،
لأنى لا أدرى هل يجوز أولاً يجوز أن يحمل المحرم عصا »
« قال : « ما أوصافها ؟ »

قلت : « وما شأنك أنت بالله ؟ هى عصى والسلام »

قال : « لا لا لا . لقد وجدت عصا فى الطريق قرب الرغامة
فقطعت على الناس السبيل »

فضحكت وقلت « أوكد لك أن عصاي تحترم القانون ولا تخرج على النظام ولا تعرف قطع الطريق » فلم يجد حتى بابتسامه ، وضاعت على النكته في هذا البلد الجاد. وقال : « ابحث عنها من فضلك فان الطريق مقطوع لا أحد يروح ولا أحد يغدو »

فهرولت في مشاملي إلى السيارة فلم أجد العصى فعدت وقلت له : « هي عصاي قاطعة الطريق ، فاسمح لي أن أعتذر بالنيابة عنها » فمضى عني إلى التليفون ، وخفت أن يأخذوني بها ويحزوني بما صنعت فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدني ، فعدوت وراءه وأسرت اليه وهو يتكلم في التليفون :

« أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول في كتابه المنزل » ولا تزر وازرة وزر أخزى ،

فلم يزد على أن التفت الى وقال : « هل نردسا الى جدة أو ندرلك بها في مكة »

فقلت : « لست أريدها والله فانها فاجرة كما ترى . وأخشى أن

ينزو برأسها خاطر آخر ، أفلا يمكن دفنها في الرمال مثلا ؟ »

فقال للتليفون لالى : « أرسلها مع الشرطة الى الضيافة »

فصحت به : « لا لا . ردها الى جدة من فضلك فحسبي ما صنعت

فقال لمخاطبه في التليفون : « بل ردها الى بيت العويني في

جدة . رجا »

ثم التفت الى وقال : « هيا بنا فقد تأخرتم »

✽

ولست مبالغا فيما رويت عن عصى وما صنعت ، فقد كنا في الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرده جوف هذه السيارة الذى يغلى ، نصيح بأحد الواقفين هات ماء »
فلا يتزحزح ولا يدنونا بل يقول وهو واقف مكانه :
« تفضل »

فينزل السائق ويجىء منه بما يريد . وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقيل لنا بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة . وجزاء السارق هناك قطع اليد ، وقد أمن ابن السعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين . بقطع يد السارق وما يسمونه التصبيحة .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود في أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا الى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن وقال له . « هذا كيس بن وجدته في الطريق »

فسأله : « ومن أدراك أن فيه بنا ؟ جسسته أوفتحته ونظرت

فيه ، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لأخفيته ولم تظهره ولم تسع به الى . كلا ! حتى الجس لا يجوز . اقطعوا يده .

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه أبدا ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا الى طريق آخر غير الذي فيه هذا الشيء المطروح حتى يمر شرطى فيحمله ويبحت عن صاحبه ، أو يمر واهم بالشرطى فيبلغوه . واذا لم يقعوا على صاحبه نشروا في « أم القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

أما التصبيحة ، فشيء آخر . تكون هناك عشيرة ضربت بالسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة ، فان كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فيها والله الحمد ، والا همس في أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من غير أن يفضى الى احد بغايته ومقصده ، ويجنب في طريقه الى العشيرة مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في الصحراء التي لا تطؤها قدم ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر فيصلي بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيصبحونها وهم يصيحون :

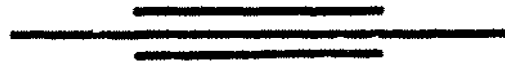
« هبت هبوب الجنة . أين أنت يا باغيها ،

« خيالة التوحيد اخوان من أطاع الله ،

« فلا يبقون ولا يذرون

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز. لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى تصبيحة أخرى.

والطريق الى مكة واد غير ذى زرع ، وعلى جانبيه جبال شتى الشكول متفاوتة العلو ، ومناظرها توقع فى الروع أنها غاصة بالمعادن المختلفة ، ولست أعلم أن أحداً درس طبيعتها وفى الطريق محطات أو استراحات ، يجد فيها المسافر القهوة والشاى ، ويستطيع أن يبيت فيها اذا أدركه الليل أو التعب أو كالت مطيته ، وكبراها بحرة فى منتصف الطريق ، ولها سوق دكا كينها من الخيش والخشب ، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة ، وفيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض فى الطريق ، من الحجاج أو الأهالى . وفى كل محطة مخفر وتليفون . ولم أستغرب هذا الطريق الموحش ولم أجد فيه جديدا ، فانى فى مصر أعيش فى رقعة من الصحراء والى جانبي الجبل . وقد دخلنا مكة بعد العشاء .



في مكة

دخلنا مكة لأدري متى؟ - بعد العشاء أو بعد المغرب، في الظلام والسلام - فما في الوسع أن يعتمد المرء في الحجاز على ألوان النهار والليل لمعرفة الوقت، أو يركن إلى الشمس أو حتى إلى القمر، وقد انتهت بعد ثلاثة أيام إلى إساءة الظن بالشمس والايقان باختلال دورتها. وهل كان في مقدوري أن أكذب ما أجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن اصدق هذه الشمس القديمة وحدها، ولم تكن ساعتى على يدي فقد تركتها مع ثيابي لما لففت نفسي في مشامل الاحرام، فلا عجب اذا كان الأمر قد اخطأ على فلم أعد اميز بين النهار والليل.

بعد العشاء إذاً أو بعد المغرب - كما تشاء فكله ليل - شارفنا مكة فنفض السائق في بوقه تنبيهاً وزجراً للناس عن الاحتشاد في طريقه، وفتحت أنا الشباك لأنظر فلم تأخذ عيني شيئاً، حتى رمال الطريق وصخور الجبال لفها الظلام في شملته، فاضطجعت وقلت إن لي شأناً غير شأن أصحابي، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنها فمن حقهم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا - اذا وسعهم ذلك - ولكني

أنا ابن هذه البلاد ، بل ابن مكة بالذات ، فان جدنى لأمى مكية
زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلا فخلا من أهل المدينة
فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها الى مصر بعد وفاة أبيها وخراب
بيته وتجارته فتزوجت جدى ، ثم ان أبى بازنى مثلى ، وقد انحدرت
اليه هذه « المازنية » ثم إلى بعده على نحو ما انحدرت الينا « الآدمية » ،
وهذا كله مفسر فى « صندوق الدنيا » ، فيرجع اليه من شاء من
طلاب هذه الأنساب العريقة . وقد أسلفت القول على قبر حواء
جدتى العليا ولست أكرم القارىء أنى تأثرت جداً وأن الدمع غلبنى
حين الفيت نفسى - أنا الغريب البعيد عن وطنى وأهلى واصحابى
وعن كل من يعنى بى أو يكثر لى ، واقفاً أمام قبر جدتى ! وصحيح
أن القرابة بعيدة ، ولكنها على كل حال ، من رحى ، وأنا على
الأصح من رحىها . ولم يخالجنى ظل من الشك فى أن هذا قبرها
على التحقيق ، فقد حن الدم فى عروقى اليها ، وكان حنينه
بالغريزة التى لا تخطئ ، ولن يكذب الدم فانه ليس بماء ، وشعرت
بأن معين حى البنوى لها قد جاش واضطربت أعماقه ووطنى
وفاض من مقلتى فاستندت الى حديد الباب وأسبلت الدمع .
نعم بكيت أسفاً ، لأن جدنى لم يطل بها العمر حتى ترانى ، كلا .
وما ضاعف أسفى أنى انا ايضاً لم يفسح الله فى أجلى حتى كنت
أراها - فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يجيئانى بيضعة آلاف

من السنين كان من السهل أن تطوى ولم تكن الدنيا تخسر شيئاً لو أنها لم تكرر عليها . بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحو ما ، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل ! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام . ولعل ما صارت اليه جدتي المسكينة المحرومة هو الخير ، ولو أنها عاشت الى اليوم ولم تمت ، لما أتاحت لنا فرصة للخروج الى الحياة ، وفي هذا بعض العزاء لنا .

و رأيتني أتلفت - بقايا فقط - وأنا داخل مكة كأنما ابحت عن بني مازن أهلى وعشيرتى ، واشتقت أن اعانق القبيلة كلها بكل ما فيها حتى الخيام والجمال والحيل والسيوف والرماح ، وأن أضمها الى صدرى وأن اريح رأسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح بلقائها بعد طول النوى وبعد الشقة ، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى ، وساورتنى المخاوف عليها ، وأشنقت ان يكون ابن السعود قد رماها « بتصبيحة » ! فان قومى - عفا الله عنهم - من ذوى المروءات ، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافراً مثقلاً بالأحمال رازحاً نحت الأعباء ، وابن السعود يكره هذا التخفيف عن الناس ، ويؤثر أن يدعهم ينوون بما عليهم وما معهم ، ولا يجيز هذا الضرب من التعاون .

وأقسمت - في سرى - اذا كان (الاخوان) «١» قد (صبحوا)
قوى ، ليكونن لي معهم شأن آخر .

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد :

« ألا تفتحون النوافذ ؟ »

قلت : « ولماذا ؟ » .

قال : قد يكون هناك جند لتحتيتكم فيحسن أن تبرزوا لرد

التحية . »

فقلت وأنا أرتد الى الوراء وقد أحسست أن وجهي صار

كالجمرة وان كانت المرأة التي امام السائق لم ترني شيئاً ، لأنها بعيدة
عني ومنحرفة أيضاً :

« عفواً ياسيدى . لا نخجلوا تواضعنا . أرجو . ألع . . . اصرفوا

الناس عنا . . . » .

وكنت أريد أن اقول كلاماً آخر ولكنني نسيته لأن صيحة

مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقعة سلاح . نخفت

وسمعت أسناني تخبط وهي تصطدم . ثم مالكت نفسي وأسعفتني

الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على

باب مكة .

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق ، ومضى السائق اللعين
يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت ، ولا يمهلنا حتى تتأمل
الناس المحتشدين على الجانبين والدكاكين المضائة ، بمصايح البترول
- أو الزيت فما أدرى - والطريق طويل يشق مكة من بابها الى
آخر الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسيارة في
سبع دقائق ، ثم وقفت بنا أمام دار الضيافة على « المسعى بين
الصفاء والمروة » وأمام باب السلام ، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون
يسلمون علينا ، فقلت هذه فرصة ، ولعل بعض قومي بينهم أتوا مستخفين
فملت عليهم ، او على الأصح ، شبيت اليهم وتعلقت بأعناقهم
وطوقتهم بذراعي وساقى أيضا - ذراعى حول أعناقهم وساقى
حول خصورهم - وأهويت عليهم أقباعهم وأثم أفواههم وخدودهم
وأنوفهم وأذانهم ورؤوسهم ، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما
تستحقه وتستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم .

وملنا الى غرفة رحبية نصفها مضاءة ، والنصف الآخر تصعد
اليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس وفى وسطه مكتب عليه
تليفون ، فهممنا بالجلوس فقبل بل توضحاوا لتطوفوا وتسعوا وتحللوا
من الاحرام ، فان سمو الأمير ينتظركم . فتلفت حولى ثم الى
الدرجتين ورحت أفكر فى طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله

على بحيلة . وكان اخواني في خلال ذلك قد سبقوني الى الوضوء فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبداً طويلاً فأشرت اليه فدنا مني . فأنخيت من مرقبي العالى كأنى أريد أن أهمس فى أذنه شيئاً ثم غافلته وتعلقت به ودرت وتركت نفسى أنحدر على هذا العمود الآدمى الى الأرض بسلام .

وقدم لى أحد العبيد « قبقابا » فنظرت اليه ثم هزرت رأسى وسألته :

« ما هذا ؟ »

قال : « قبقاب للوضوء »

قلت : « ولكن كيف ألبسه ؟ »

قال . « اخلع نعليك وأدخل هذا بين اصبعيك »

و « هذا » عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب المنجور عمودية على سطح القبقاب ، يدخلها المرء بين اصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القبقاب ، على الأرض ولا يرفعه عنها لئلا تفلت الاسطوانة من بين الاصبعين ، اذ لاسير من الجلد له يمسك ظهر الرجل ، فقلت بل الحفى خير من هذا وقعدت أتوضأ .

وللحرم عدة أبواب ، ينحدر منها المرء الى صحن رحيب جداً يدور بالكعبة ، كصحن الأزهر إلا أنه أوسع كثيراً ، وارضه رمل حصى ، ولكنه حول الكعبة مبلط ، وكذلك ما بين الأبواب

وهذا المطاف . وقد تسلمنا شيخ المطوفين ومضى بنا الى مقام ابراهيم - جدى أيضا - عليه السلام ووقف بنا وصفنا بين المقام وزمزم وقال صلوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف ، وشرع فى العمل ، وكنت أتمنى لو تريت قليلا - دقائق فقط - لأنظر الى الكعبة فى الليل على ضوء الكهرباء ، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى ذراعيه الى صدره كأنه يتهيأ للجري ، وتلك هى الهرولة . ومضى يدعو ونحن نقول وراءه ، وكنت وأنا اهرول موزع النفس . عيني الى الكعبة والى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول وراء مطوفها وأذنى الى هذا الشيخ المطوف الذى كان يأتى الا ان ينطق عبارات الدعاء بأقصى ما يستطيع من البطء والوضوح وبأكثر ما يسعه من اللحن أبضاً ، كأنما حسبنا بعض الجاويين أو الهنود ولم يدر - سامحه الله - أنا . . ولكن المفارقة لاتليق . غير أن لحنه كان يمزق أذنى ويفسد على تبلى فى الطواف ، وقد أذكرنى جماعة « التراجمة » فى مصر الذين يحشون رهوس السائحين وزائرى الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة . وكما عالجت مصر مشكل التراجمة والأدلاء بإنشاء مدرسة لهم ، كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهداً لتخريج المطوفين ، وحنناً فعلت ، فان من رأينا من المطوفين أعاجم .

ووددت لو أتيح لى أن أتمهل عند الحجر الأسود فانه عجيب ،
ولكن الزحام كان شديداً : ولسنا بأحق من سوانا بذاك ،
وهو أسود فاحم ووضاء مشرق ، وحوله إطار بيضاوى من الفضة
والمرء يحتاج حين يقبله أن يدخل وجهه فيه لأنه - أى الحجر -
مجوف . وأحسب أن السنة مئآت الملايين من الخلق قد
لحسته وأكلته ، أو ، لا أدرى ، لعله كان هكذا أبداً ، وقد قلت وأنا
أفعل ما فعلت الملايين قبلى وما ستفعل الملايين بعدى ، كما قال عمر
ابن الخطاب : « اللهم انى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع
ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله ما فعلت »
والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر الأسود ،
ولكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه الى الخضرة
نأميل ، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنين
كأنه من المعدن أو الفضة . وقد نازعتنى نفسى مراراً أن أترك
الصف وأتخلى عن المطوف وأدنو منه لأتأمله ، فلما أذن لنا
المطوف أن نفعل فى الطواف السابع كنت أسبق الاخوان اليه .
والحق أقول انى أحس أن طوافى هذا لم يحسب لى فى عداد
الحسنات التى يسجلها أحد الملكين ، فقد أفسده المطوف بلحنه
كما أسلفت القول فى ذلك ، وكنت أنا من ناحية أخرى أرد عيني
بجهد واضح عن التطلع والنظر فيما حولى ، وهكذا خرج كل من

اخواني بقصر أو قصور في الجنة وخرجت أنا كما دخات وليس لي
سوى مشملين على بدني احتفظت بهما للذكرى ، فلا بد إذن من
عمرة أخرى أو حجة أعوض بها ما فاتني .
وقد اشتهيت وأنا ألمس الحجر الأسود أن اقتطع منه قطعة
أحملها معي وأعود بها ، فقد خيل إلى انه عنبر متجمد لا حجر .
وجمحت بي هذه الشهوة حتى لأنستني أن ليس على بدني سوى
مشامل الاحرام فذهبت أنحس لعل معي مبراة أو شيئاً يصلح
للقطع ، ثم أفقت والتفت واذا بأحد اصحابي يمد يده بمنديل يمسح
به الحجر ، فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله واين خبأه .
وقد كانت يداه فارغتين ، وتاملته واذا بالخبيث يلبس تحت المشامل
ثيابه الصوفية .

وقد قلت له لما عدنا الى دار الضيافة :

« هات جنيهاً ياسيدي . جنيهاً ذهباً . »

فحملق في وجهي وقال : « لماذا ؟ »

قلت : « جنيهاً نشترى به ذا القرنين »

قال : « ذا القرنين ؟ لست أفهم »

قلت : « خروفا ذا قرنين طويلين متلوين نطلقه عليك .

فينطحك بهما ثم نذبجه ونطعم الفقراء لحمه » .

قال : « ولكن لماذا ؟ »

قلت : « جزاء وفاقا بما زورت على الله يا خبيث ! أتلبس ثياب
صوف تحت المشامل مغالطاً ربك في قلب الحرم المقدس ثم تتجاهل
تُحاول ان تهرب من الفدية ؟ ! هات لنا ذا القرنين عجل ! »
ولكنه لم يزد على أن قال : أوه ! « وضحك »

وملنا الى زمزم وهى بشرى فى الحرم عليها بناء له باب ، فسقونا
نمها ماء غير سائغ ، ودخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدري لماذا ،
اقترح بعضهم علينا أن نستحم بماؤها فلم نر لهذا موجبا ، فان ماءها
زد وجو مكة فى الليل غير دافئ ، وعلى فم البئر سور من الحديد
ال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلوا لهم أن يلقوا بأنفسهم
البئر ليغرقوا ويموتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها الى الجنة
باشرة بأخصر طريق .

وخرجنا لنسعى ، بين الصفا والمروة ، وهو طريق بينهما مهدته
الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلات للسعى ، وطوله نحو
يلو أو أقل ، ولا بد من قطعه سبع مرات ، فلما شرعنا نسعى جاءنا
لبشير من فيل الأمير أن فى وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان
تعب قد أدرككم فرفعت بدى بالدعاء لنموه وابتهلت الى الله أن
طيل عمره وأن يلهمه دائما — على الأقل ونحن فى الحجاز — مثل
بذا التيسير على الناس وعدوت الى السيارة فصاح بي الدليل الذى
سعى بنا أو معنا على الأصح :

« الى أين ؟ »

قلت . « الى السيارة . باصابر . تعال بسرعة »
ولكن صابراً سائقنا كان ملكياً أكثر من الملك ، فقد أبى
لنا أن نسعى بالسيارة وقال ان هذا لا يجوز ، وان المسعى غاص
بالساعين وبالنساء والرجال والاطفال ، فليس ما تبغون من
الانسانية في شيء . فحجلنا وركنا السيارة بعد أن استوينا فيها .
وأصارع القارىء بانى لعنت « صابراً » هذا في سرى ، وان كنت
لم يسعنى الا احترامه ، وهو شاب في العشرين من عمره حدثنا في
الطريق أنه مصرى الأصل وان لأسرته نحو مائة عام في الحجاز ،
وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية ، ولكنه
الآن سائق سيارة في شركة القناعة ، وأبرز صفات هذا الشاب
الجرأة والاستقلال مع الأدب الوافر ، وحديثه ممتع وفي لغته فصاحة
وفي صوته عذوبة وفي عينيه حلاوة ، ولو كان الغناء مباحا لكان
الأرجح أن نسمع منه شذواً مطرباً ، وقد كان يخاطب كبراء
الحجاز في جدة ومكة وفي الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل
أمامهم سيجارته ويذهب يدخن و يناقشهم ويحاجهم ويعترض
على بعض ما يقولون ويدلى بالصواب في رأيه كأنه ند لهم ، وكانوا
هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذاً ، ولا يبدو عليهم أثر
لدهشة أو الامتعاض ، فالأمر اذاً مألوف .

ولكنه حنبلي مستبد ، أبى لنا ان نسعى بالسيارة ، فلما أصر
رسل الأمير وألحوا ، ترك السيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره ،
وأحسب صابرا قد حقدتها علينا وأسرها لنا فقد تخلى عنا بعد
أن عدنا الى جدة ، وعلى أن هناك حاقدنا غيره ، هو زكى باشا .
سعى على قدميه مع بقية اخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعدها
يشنع علينا ويشهر بنا - مازحا - في كل خطبة له ، بل جعل يتخذ
من ذلك دليلا على ان الاسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية
الحديثة ، وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة في التشهير
بضعفنا واعياننا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه .

وقصصنا شعرات من رؤوسنا ولبسنا ثيابنا ، أما أنا فاخطأت
وقصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب ولم اتنبه الى خطيئتي الا
بعد أن صرت في نصف ثيابي ، فكتمت الأمر ، وفي مرجوى ألا
يفطن اليه الملك الموكل بي ولا أدري أيهما ولكن هذا الاختلاف
على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما ولا دخل لي فيه
ولست مكلفا أن أفضه - غير أن أحد زملائي أبى الا أن يلاحظ
ذلك و يرفع به عقيرته ويصبح مسجلا على هذه المخالفة ، فأحسست
بالملكين جميعاً يتحركان و ينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين
هذه الملاحظة ، فتكظمت غيظي وقلت وانا أتكلف الابتسام :

« ياسيدى ان العمرة فسدت كلها من قبل ذلك ، وقد اعتزمت
ان أعوض ما فاتنى فى وقت آخر »
ثم التفت الى يسارى وقلت بصوت عال لكاتب السيئات :
« وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى : الى المطوف أولاً
ثم اليكم ، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل ، .
واسترحت بعد أن أدليت بحجتى وشرحت عذرى وحركت
كتفى اليمنى تنبيها لمسجل الحسنات

❦ ❦ ❦

وقصر الملك فى طرف من المدينة ، وهو طويل عريض ،
مبنى بالآجر ، وله جناح جديد هو الذى دخلناه ، وفى فناءه حديقة
صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب وحيانا لأدرى كيف
فلست اخصائيا فى حركاته . وصعدنا الى حجرة عظيمة طولها -
على ما أقدر - لأقل من خمسة عشر مترا فى نحو عشرة أمتار ،
مفروشة ببساط من المخمل ، وعلى مدارها مقاعد عالية شبيهة
« بالكنب » المصرى ، ومكسرة « باليوت » والمخمل ، وكذلك
« براقع » الستائر وفى وسطها صف من العمود يحمل سقفها ،
والجدران مكسرة ، وكان الأمير جالسا فى الصدر فنهض لاستقبالنا ،
فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة ، ومن بعدها الشاهى أو الشاى .
والأمير فى الرابعة والعشرين من عمره ، وهو نائب الملك

في الحجاز كما ان أخاه الأكبر الأمير سعود - ولي العهد - نائب الملك في نجد ، وثيابه ثوب أبيض « كالجلاية » المصرية فوقها سترة « جاكتة » رمادية عليها العباءة السوداء وهي رقيقة النسيج شفافة ، وعلى رأسه « الحرام » والعقال . وهو قسيم و سيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع ، ولكن نظرتة حين يصمت تبدو حزينة ، وفي تقوس شفثيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم ، أما القوة فأيتها أنفه الأفتى وجبينه العريض . وأغرب ما في وجهه اجتماع اللين والصلابة والرقه والقوة ، واختلاط ذلك كله وتسرب بعضه في بعض ، وهو أنطق وجه رأيتة بجميع هذه المعاني ، غير أن المرء لا يسعه إلا أن يشعر أن هناك زاوية ورآء هذا المحيا الناطق يغيب فيها الأمير خواطره وأرآءه الخاصة و يحجبها عن العيون الفاحصة . وقد كنت أتوقع - قياساً على ما شهدت في جدة - أن يكون قصر الملك أفخم ريشا وأفخر أثاثا ، فإذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه .

و غرفة الطعام كأبسط ما تكون : حجرة مستطيلة تسع نحو مائة . في وسطها مائدة طويلة ساذجة صفت إليها الكراسي الخيزران ، وأدوات الأكل تامة ، والآنية كلها من طراز واحد ، والملاعق والسكاكين وما إليها من الفضة ، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفكه عليه بالحديث .

ولم يكن ثم نظام معين أو ترتيب معد للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء ، وقد احتفظت بقائمة الألوان ، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة وفي نشرها دفع لكثير من الأوهام الضيائية :

« شوربة بالبزاليه

دجاج رستو بالبوريه

بامية

حلا كريمة بالكاكاو

بريك

دجاج بالكري

بدنجان اسود بالزيت

حلا كيك بالمشمش

رز بالشعرية

فاكهة »

وقد علمنا من سمومه ان الخضر تزرع في وادى فاطمة -
وسيجىء ذكره - من مثل البامية والملوخية والباذنجان و الخرشوف
وما الى ذلك ، وفي الوادى فواكه كالموز والليمون الحلو فضلا
عن الملح ، وقد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المباحة ، ولفتنا بصفة
خاصة الى الباذنجان ، ولكنى لم استمرته لأنه غليظ سميك الجلد
غير سائق الطعم .

ولا أطيل على القارىء . ذهبنا بعد الطعام الى حجرة أخرى للجلوس ، مؤتثة على طراز حجرة الاستقبال الكبرى ، ولكنى استغربت أن أرى فيها دولابا مما يتخذ للثياب ، وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاي ، واشتهيتمنا أن ندخن . ولكن التأدب منعنا ، والناس لا يدخنون فى حضرة الأمير أو كبار النجديين لأن الدخان مكروه عندهم ، وكان الليل قد انصف فاستأذنا فى الانصراف . ولو أننا كنا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبثنا الى الصباح ، فما مما يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه ، ولم نكد نطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجاير .

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فراش اتخذه واحد قبله ، فاذا ذهب ضيف فكت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من الضيوف ، وقد لفتنا الى هذا أنا رأينا كل ما على الأسرة جديدا لاشك فى ذلك ، فسألنا فعلمنا مارويت ، وقيل لنا سترون المنجد غدا يدخل وأنتم خارجون . وأقسم ما نمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع ، ولقد راهنت واحداً على أنه محشو بالريش فخرست الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر .

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أنى نسيتم فى جدة ، فقلت : لا بأس قليل من التقشف ينفع المترف ، وبحسبى

بعض ما على من الثياب .

و أخذت النوم وأنا أفكر في الأمير وفي انتظاره إيانا في قصر
جلالة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمل أو يتأفف ، بل من غير
أن نشعر نحن بالحاجة الى الاعتذار له .

لا أدري ماذا أصابني في مكة ، فقد كنت أحس أن عفريتاً من
الجن ركبنى ، وبلغ من شدة الحاح هذا الشعور انى كنت، أرانى
أقف في الطريق وأثبت قدمي في الأرض مباعداً بينهما وأرفع
إحدى ذراعى الى ما وراء كتفى كمن يريد أن يسند شيئاً ثم أرفع
كتفى وأحطهما كأنى أريد أن أرد ما فوقهما الى الاتزان والاعتدال
كما يفعل من يحمل طفلاً أو غير ذلك ، فذكرت قصة السندباد
البحرى الذى ركبه ما ركبنى ، فلم يزل مستقراً على كتفيه حتى
سقاه السندباد البحرى خمرأً أدارت رأسه وراخت أعصابه
وفككت أوصاله فطرحه عنه . ولقد تمنيت لو أتيج لى أن أسقى
عفريتى كأساً من الوسكى أو حتى من الزيت لأتخلص من
ثقل هذا الكابوس ، ولكننا كنا في مكة ولا سبيل فيها الى شراب
غير ماء زمزم . وهو ماء قد يغى النفس ولكنه لا يسكر

على أنى لم أقطع الأمل ، وكيف أقطعه وهذا العفريت على
كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما ؟ وكيف أطرح حمله
الثقيل عن عاتق بغير الوسكى أضحك به عليه وأزلزل كتفى تحتة ؟

«ففحصت الوجوه التي حولي وتفريست فيها ملياً ثم أخترت وجها
كالمنتفخ فيه عينان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب ، وقلت له :
« يا صاحبي أنى أشبه الخير من وجنتيك ، وأنس الرشد من
عينيك ... »

فقاطعني « عفواً سيدي .. »

قلت « لا داعي لهذا التواضع فان الأمر بين ولا يشك في ذلك
الا أعمى ؛ فهل لك في معاونتي ؟ »

ففرك كفيه جذلاً وتهدلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن
أسنان طويلة سوداء ، وقال وهو يحني رأسه قليلاً :

« مرني ياسيدي يحن هنا خدامكم »

فوضعت كفي على كتفه وقلت :

« أستغفر الله . إن الأمر بسيط على ما أظن لا يحتاج إلا إلى

خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس »

فخلق في وجهي كأنه لا يفهم فمضيت في كلامي وقلت :

« ان لنا في مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت إذا

ركبت الناس ، وقد أخذناها عن السندباد البحري ، أظنك

تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت به . إنه ذلك التاجر البغدادي الشهير ...

آه لا تعرفه ؟ عجيب هذا ! إذا ما طريقتمكم أنتم ؟ »

فتلعثم وقال : « طريقتمنا ؟ طريقتمنا ؟ هل يريد السيد المازني

أن يقول إنه يعتقد أن العفاريت تركب الناس ؟ »
قلت بضجر : « طبعاً . طبعاً إن العفاريت مذكورة في القرآن .
أفلا تؤمن بالقرآن ؟ على ان المسألة لا نحتمل الخلاف فان الواقع
من الأمر أن على كتنى الآن عفريتاً وانا أريد أن أصرفه فما
أستطيع ان أظل احتمله في غدوى ورواحى هكنا ؛ ثم انى أريد
أن أدخل الكعبة غداً فكيف أدخلها بعفريت ؟ ألم تنهم ؟ ان
العفريت يود أن يغتتم هذه الفرصة - فرصة وجودنا وكوننا
ضيوف الأمير والسماح لنا بدخول الكعبة بغير تفتيش : فيدخل
معى ، أعنى مستخفياً على كتنى . وهذا لا يجوز ، ولست أرى
أن اساعده على ذلك . أفهمت الآن ؟ »
فضحك الخنزير - أعنى الرجل الذى توسمت منه الخير ،
وظنى أمزح ، وقال :

« يارجل . والله لقد حسبتك جادا ؟ »
فغاضبى ذلك ولكنى كظمت غيظى وقلت بابتسامة متكلفة :
« لقد أخطأت . إسمع . قد يكون عفريتى مؤمناً أولاً يكون
لا أدرى . لذلك أريد أن أصرفه . فهل لك أن تعيننى ؟ أجب
بلا أو نعم . وعسى أن لا نخيب أملى فيك ،
فعاد اللعين يضحك ، وأحسبه أحب أن يجاربنى فيما ظنه
مزاحاً منى فقال :

« وما هي طريقة السندكار البحري التي تتبعونها في مصر؟ »

فتشجعت وقلت بلهجة الجد المر .

« نسقيه كأسا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستربح منه - طريقة

عملية - بل هي أضمن طريقة لأن قوة الاسكار في الخمر حقيقة

علمية ولهذا نهى الشرع عنها »

فأرسلها ضحكة مجلجلة نجأوبت باصدائها الحجره فأسرعت

فوضعت يدي على فمه وبودي لوأ كتم أنفاسه فقال بعد أن

تخلص مني :

« والله يا أهل مصر إنكم لظرفاء »

فقلت « العفو . هذا بعض ما عنديكم . على أن في الوقت متسعا

لتقارض الشاء فهات لعفريتى كأسا »

فابتسم وقال .

« كيف تسقيه وأنت لا تراه ؟ »

فقلت « إني أعرف الطريق الى فمه فان بيننا الآن اتصالا لا

تدركه أنت . فهاتها أولا والباقي على . »

ولكنه لم يفعل ، لأنه ظن لبلايته أنى أستدرجه الى

الاعتراف بان في مكة خمر ، وقد رأيت به بعد ذلك فعجبت أين .

غابت سمات الخير و كيف استسرت مخايل الرشد التي كنت

اجتليها في وجهه ؟

وقد ساط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر أو قبيله
بـدقائق وكننا نياما ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكان عفرتي قد
انصرف عني فى الهزيع الأخير من الليل - انصرف على يأس
كبير ، وكان فى حجرتنا ستة أسرة على صفين ، والباقون منا فى
حجرات أخرى . وكان سريري بجانب النافذة بحيث يسعنى
بأيسر مجهود ان أطل من الشباك على الحرم ، واتفق انى كنت
أحلم بالعفاريت وأرانى كأنى أسقيها خمراً وأعابثها وهى تترنح
فأدغدغ لها خصوصها تارة ، وأشعل السجاير من عيونها طورا ،
وأجرها من ذبولها وأديرها حولى ، وهكذا واذا بصوت ممدود
مزعج يوقظنى من سباتى ويبدد أحلامى اللذيذة ويطير خيالاتى
المتعة ، ففتحت عيني متضجرا ، فاذا شبح ضخم يبدو من وراء
الكلة فقلت لـنفسى « يا للفضيحة ! أيسطى علينا فى دار الضيافة ؟ »
وابتسمت مطمئنا فقد تركنا ما معنـامن النقود فى جدة ، وتناومت
لأرى آخر هذه الحكاية ، فانبعث من الشبح صوت غليظ مديد
فرفعت رأسى مقدار قيراط فاذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئا
عظيما جدا ، ولم يعجبني أن يوقظنى فى فحمة الليل فحولت وجهى
عنه فمد يده وصاح :

« قم ! »

فاشرت اليه ان لا ، فعاد يصيح

« أقول لك قم ؟ »

فصحت بأعلى صوت أستطيعه :

« وانا أقول لك لا فاذهب عنى »

فقال : « قم لنصلى الفجر فى الحرم . منظر لزيد لا يصح ان يفوتك »

فقلت « اذا كان المنظر هو كل ما تبغى ، فاذهبوا انتم فان منظركم من النافذة سيكون امتع لى ، ويمكنكم ان تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها »

وأحسبه لم يسمع أولم يحفل ما أقول فقد مد يده من تحت الكلة وراح يشد اللحاف و يعربنى وهو يقول

« قم . قم . قم . »

فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى

« لا . لا . لا . »

فمضى عنى الى الباقيين واحداً واحداً ونسى انه أيقظهم جميعاً حين أيقظنى



وتوضأنا ودخلنا الحرم ، وفتحت لنا الكعبة وبابها عال والصعود اليه بسلم خشبي متحركاً، يوضع عند الحاجة ويرفع بعد ذلك ، وهو من النوع الذى كان يتخذ فى المساجد المصرية ليرقاه

الخادم ليبلغ الأسرجة فيضيئها أو ينظفها ، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء
وتناول يدي سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكادت أقع
وأهوى ذلك أني كنت أصعد على يدي ورجلي كما تفعل القردة ،
ولما استويت واقفاً طوقني بذراعيه وغمر وجهي بلحيته البيضاء
الطويلة وكنت أنا أيضا قد أرخيت لحيتي ، وكانت بيضاء كذلك ،
ولكنها قصيرة فأسفت لأنني لم أرسلها قبل رحلة الحجاز بيضعة
شهور ، اذاً لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند ،
وان أشكه بلحيتي كما شكني بلحيته ، على أن لحيتي على قصرها أفادتني في
الحجاز و بواتني مقام ملاحظ و مركزاً ممتازاً ، وأكسبتني وقاراً ليس لي ؛
وجعلت لي سمياً وأهبة لا عهد لي بهما . وكان الناس يحتفون بي
ويهرعون الي ويكبرونني من أجلها ، وينحنون على يدي فاجذبها
وأقول . « استغفر الله . تؤ . تؤ . تؤ بارك الله فيكم » ويعنون بي
و يمنعونني ان أمشي الي حيث السيارة لأن من كان في مثل سني ،
وكانت له مثل لحيتي البيضاء لا يليق أن يحشم مشقة ، أو يكلف
تعباً . فلو أن الغيد في الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعا كما
قال ابن الرومي :

أصبحت شيخاً له سمت وأهبة

يدعوني الغيد عمأ ، تارة ، وأبا ،

ولكنهن هناك محجبات ، فلا أسف ولا بكاء . وإني لحقيق

محمد الله وشكره على أن بيض وجهي ولم يسوده كوجوه زملائي - أعني الذين كانت لحاهم سوداء ، وقد أسفت وأنا هناك على عمري الذي أضعته في الاشتغال بالأدب . وأنفقت في هذا العبث الذي لا يجدي . فان لحية واحدة بيضاء ترجح هناك بمائة كتاب من خير ما أتتجت العقول ، ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدي لا الكتابة والتأليف كلا ، فان هذا كله عبث بل معالجة لحيتي لتشيب .

ومشى بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه . راح يدعو وأنا وراءه ، وعيني الى لحيته النشيطة التي كانت تتحرك مع الكلام ، وأقسم لقد نفستها عليه حتى لقد خطر لي أن أنزع عن وجهه وألبسها بدلا منه .

وقال بعد أن فرغ :

« صل هنا ركعتين »

قلت : « أين القبلة ؟ »

قال : « لاقبله هنا . كل مكان قبلة »

قلت « فهل أصلي دائراً حول نفسي كالكرة الأرضية ؟ إن

هذا صعب فأرني كيف أصنع »

فلم يفهم وقال :

« تصلي ركعتين في كل اتجاه »

فأنجبه لى رأيان أردت أن أستفتى فيهما .
ولكنى لم أجد من يفتى ، أو على الأصح لم أتوسم فى وجوه
من حولى قدرة على الافتاء ، فأطعت واصلت .

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية بحمل سقفها عمود
غليظة من خشب زكى الرائحة ، وهى مكسوة ، ولكن الجزء الأسفل
من جدرانها معرى ، وعليه ألواح من الرخام حفرت فيها كتابات
مخطوط شتى ترجع الى عصور مختلفة تذكر أسماء من أصلحوها أو
رمموها أو زادوا عليها شيئاً أو فعلوا غير ذلك ، وبعض الكتابة
كالاطلاسم لا يقرأ . وقد تعقبنى رجل يشرح ما على الجدران، وكان
من الجلى أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم .
فسألته وأشارت الى لوح ردىء الخط « ما هذا ؟ »

فقال : « هذا ياسيدى... هذا... أظنه خط... أ... أ... »

فقلت : استعجله « خط من ؟ »

فدنا من اللوح وتأملته من قريب ثم رفع رأسه وقال :

« نعم . المنتصر بالله المستنصر . . إيه ؟ نعم هو بعينه لقد

عرفته . »

فقلت : « آه عرفت خطه ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « انه ردىء »

قال « نعم غير واضح »

قلت « هل كان صديقك ؟ »

قال « صديقي ؟ »

قلت « لعله كان قريبك ؟ »

فخملق في وجهي ثم قال « انه قديم جداً »

فسألته : « الخط أم الرجل »

فقال « كلاهما »

فقلت « شىء جميل ! وأين هو الآن ؟ »

فقال بلمهجة المستغرب أو الذى بدأ يشك في عقل محدثه :

« أين هو الآن ؟ لقد مات منذ مئات من السنين »

فسألته : « وهل كتب هذا بعد أن مات ؟ »

فجذبني أحد زملاء فلم ألتفت اليه وقلت لدليلي :

« أريد أن أبكى »

وأخرجت المنديل ورفعته الى عيني فأقبل على الرجل يسألني

بلمهفة .

« ما السبب يا سيدي ؟ لماذا البكاء ؟ »

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر .

« أسفا على المستنصر ! »

فجعل يطيب خاطري ويؤكد لي انه في وديعة الله وجنته .

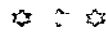
فقلت والدموع تنهمر من عيني .
« ولكنه مسكين ، فقد عمره كله »
فأخذ يشكر لي عواطف الرقيقة وشعوري الطيب فتسايلت عبراتي
على خدي وأنا أقول .
« لو كان قد أدركك لما خسر عمره كله هكذا . مسكين ! »
وانتجبت . فشدني زميلي وقال .
« تعال يا شيخ ! »

• • •

ولما عدت الى مصر . أقبلت أمي على تسألني فقصصت عليها
ما رأيت ، ووصلت في وصفي الى الكعبة فقالت .
« هل دخلتها ؟ »
فقلت . « بلى . دخلناها بصفة خاصة »
فقالت . « طوبى لك ؟ لا تخبر احداً بما رأيت فيها . احذر ،
فسألتها عن السبب فقالت .
« إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى ،
قلت : « ولكنها خالية ولا شيء فيها . كانت أشبه بمخزن
للأوثان في الجاهلية فأخلاها منها النبي عليه الصلاة والسلام »
فقالت : « أيوه . خليك على كده . كل من سألك عنها تقول
الله لم أر شيئاً »

فقلت : « ولكنها حقيقة خالية »
قالت تمام . مضبوط . بارك الله فيك ،
فقلت : « انى لا أكذب ولا أدعى : هى حقيقة كما أقول
خالية »

فقالت « أيوه . تمام . أهوكده . الله يزيديك عقلا . »
فأمسكت ، ولم أرلى حيلة ، و هأنذا أقول للقراء إن الكعبة
لاشى فيها فليصدقوا أو لا يصدقوا ، وليكونوا كأمى ، وليدعوا
لى أو فليضنوا على بالدعاء - كما يشاءون



وقد كانت مصر ترسل الى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة
دقيقة الصنع ، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز
وثناء العالم الاسلامى عليها وحمده لها وإعجابه بصناعتها ، و تبطل
من جراء ذلك صناع الكسوة المصرىون الذين ورثوا هذا الفن
عن آباءهم وانقطعوا له ، وأنشأت الحكومة السعودىة داراً
لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا
بناء الحجاز . و قد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما
تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ، ومن
السجاجيد وما إليها ، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت

مصر صناعتها القديمة البديعة ، وأصيب عمالها بالفاقة.

و من الممكن أن أقول - ومن الممكن ان يصدق القارىء -
ان لحيتى طالت فى خمس دقائق أضعاف ماتطول عادة فى خمسة
أيام ، و انى لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم
بلحية جليلة طولها على الأقل شبر . وسأروى للقارىء ما حدث .
و أنا على يقين من أن مروءته ستدفعه الى مشاطرتى ذلك الغم الذى
انتابنى لما أفلتت من يدى تلك الفرصة الفضية

وشرح ذلك كله أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح
ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة
الكعبة وسماع الدعاء - على بابها - لجلالة والده بطول العمر ودوام
النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلنى عنها .
ما وقع لى ، وكان الجيش صفين فى الطريق من دار الحكومة الى
الحرم ، وتلاميذ المدارس صفوفًا فى فنائه ، وقيل جاء الأمير فنهضوا
بنا الى الباب ، وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره
حاشيته وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر ، فدفعونا
اليه وفرقوا بنا الخلق الى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من استطاع
أن يكون الى جانبه ، وآخرون ردهم الزحام وراءه حتى بلغنا الكعبة .

ووقفنا أمام بابها ، فأجلت عيني في هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذي كاد يقصف لي ضلوعي ، فرأيت الشفاه تلعب ، نخفت أن يرى أحد شفتي ساكنين لا تضطربان بشيء ، فقلت احركهما بالفاتحة لعل الله ينقذني ببركتها من الأزم الذي أنا فيه . وأشهد انها كانت اشد الفوائح التي قرأتها في حياتي بركة ، ذلك اني ما كدت اتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء ، ثم رأيت شاباً - أوأنا أظنه ذلك - يرمي الى الداعي بعباءة رقيقة النسج جميلة ، فقلت لنفسي وانا احسد الداعي ، والله اني لأحسبن ان أدعو بخير من هذا وبأجدي منه على الأمير ، ثم اني أرى دعائي مستجاباً أيضاً

ولم أستطع أن استرسل في هذه الخواطر ، فقد قطعها على أن سادن الكعبة - وكان واقفاً في حاشيته ، أو لعلمهم ابناؤه واحفاده في باب الكعبة ، فوقنا - تقدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضاً يدعو ، فقلت لنفسي سيجيء دوري إذا ، فصبراً يامازني ، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العبيات ، وقارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه - والمرء ، كما تعلم بأصغريه . قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه - فدعى بطول النصر والتأييد .. ولكن ..

للحكومة العثمانية !!

فصحت : « ياخبر اسود ! »

ولم أملك نفسى فقرصت ذراع جارى وانا اظنه زميلا لى ،
وأدرت اليه وجهى متوقفاً ان أقرأ فى وجهه تأييد صيحتى فراعنى :
أولاً - انه لم يكن زميلا لى ولا رجلا اعرفه او احب أن اعرفه .
ثانياً - انه كان ينظر الى شزراً ووجهه من التقطيب
كالأسفنجة .

ثالثاً - انه كان يعرى ذراعه و يفحصه جيداً ، استعداداً
لملاكتى ما توهمت ، نخطوت الى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى
حاذيت الأمير ، ولا اكنم القارىء انى خفت ، فقد ايقنت ان
قرصتى كانت اوجع لهذا الجار من الدعاء للحكومة العثمانية ، وانا
- كما لا يعلم القارىء - وكما يمكن ان يعلم بالتجربة - ماهر فى القرص ،
ومزيتى انى أتناول « خيطاً » من الجلد بين لحم اصبعى وافرکه بهما
لابأظافرى ، كما يفعل الاغرار والبلهاء ، فيكون لذلك كى ، وشى ،
ولذع كلذع النار ، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لا يحتسبون
وايقنت وانا واقف ان سادن الكعبة سيطير رأسه عن بدنه
بضربة سيف ، وما على الأمير الا ان يغمز بعينه واحداً من عبيده
او يومى له باصبع فاذا الراس يتدحرج على السلم ويهوى عند
اقدامنا ، ولم نخالجنى ذرة من الشك فى ان هذا آخر عمر الرجل ، ونسيت
ان الحرم كل من فيه وما فيه آمن ، وقلت لنفسى . مادام ان الرجل

مقتول لا محالة ، فمن الخسارة ولا شك ان تذهب لحيته مع روحه
وهي ستخلق له على كل حال بعد موته ، فما يكون المرء في الجنة إلا
امرد ، ورفعت عيني الى وجه الأمير وقد وطنت نفسي ان اتقدم
اليه ، بعد ان ألمح اشارة الاعداد ، راجياً ان يأذن لي في نزع
لحيته وانخاذها لنفسي . وحولت عيني الى الشيخ سادن الكعبة فاذا
واحد وراء يجذبه من كتفه .

فقلت . « آه ! لقد حم اجلك يامسكين ! سيقودونك الى الخارج
ليقطعوا لك رأسك »

ولكن السادن خيب أملي ، ذلك انه التفت الى من يجذبه ثم
الينا وقال مصححاً :

« بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية »

ضاعت الفرصة . خسرت اللحية . وسأخرج إذا كما دخلت
وليس على وجهي سوى هذه الشعرات القصيرة ، وأسفاه !
وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه
على حين أمشي انا بين الناس محروماً كاسف البال ! وما لحية
يضمن على بها الأمير ؟؟ ان صاحبها لا يزيد بها كبراً ،
ولا ينقص بغيرها عمره ، وقد لبسها دهرأ طويلاً فحسبه طول
ما تمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحياة ،

أن نخلام على ، أنا الذى ليس احوج منى الى مثلها
وهبط قلبي ، وتدلى رأسى على صدرى ، واسودت الدنيا
فى عيني ، وتهضم وجهى ، ونقص وزنى ، وتخاذلت رجلاى ،
فلو افسح الناس لى مكانا كافياً لتهافت الى الأرض وتهاويت
كوماً مفككاً من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة ،
وأدبر لحم خدى . وظل يدبر ويدبر حتى بلغ أصول الشعر
ومنابته فبرز معظم الشعر الى الجذور .

ورفعت يدي الى وجهى فاذا بي أحس لحيتى قد طالت ...

من الهزال !

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا

وكر الأمير راجعاً فكررنا معه نتدافع ونتزاحم و يستوقفنا
رياض أفندى أمام الفوتغرافية فتلمس رؤوسنا فرجة تظهر منها .
أمام العدسة ، وأشب أنا القصير المسكين ثم انحط يائساً ، حتى
بلغنا الباب ، و كنا قد دخلنا من غيره ، فسبقنا الأمير الى دار
الحكومة . ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحديتنا ، فلما صارت فيها
أقدامنا مضينا بين صفوف الجند الى دار الحكومة ؛ وراقنى منظر
الجنود فى ثياب « الخاكي » وقات إنهم باقون لتحيتنا ولا شك

فقد مر الأمير ، فجعلت أتلفت يمينا ويساراً وأرفع يدي بالسلام
فسألني واحد

« على من تسلم ؟ »

قلت . « أريد نحية الجند يا أخي »

فصاح بي « أي جند يا أخي ؟ ألا نخشى أن يعدوا هذا تهكما
منك ؟ أتريد أن توقعنا في ورطة ؟ »

فمنحته أعذب ابتساماتي وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية ،
وواصلت تحياني وتسليماتي غير عابئ بهذه الغيرة ؟

وتوقعت أن تنقض الدار ، فقد كانت غاصة لاموضع فيها القدم
فلورميت كرة صغيرة لظلت تتنقل من رأس الى رأس دون أن تصل
الى الأرض ، بل لكان الأرجح أن تصعد مع الناس الى الطبقة
العليا وأن تدخل على الأمير معهم .

و بعد لأي ما بلغنا غرفة الاستقبال ، وكان الأمير واقفاً في
الصدر وحوله الكبراء والجند والناس يتقدمون اليه ويصافحونه ،
فاذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع - أي الوجيه - يده على
كتفي الأمير وجذبه اليه وقبل أنفه لأن الأنف أبرز شيء في
الوجه ، وقد وقف الأمير كما رأيناه ، مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا
عليها قبل المهنتين ولثامات الداعين ، فلما جاء دورنا وددت لو أنه
كان أمامه كرسي ! إذا لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجرت ذلك

وعرفت سببه وتقصيت سره ، ولكنى كما تعرف ، فاكتفيت
بأن تقدمت اليه فى تؤدة ووقار ، ويسراى تمسح لحتى تنبىها اليها
وافتا لشيبها ، ويمناى نمتد الى يده وتقبض عليها .
والحق أقول ان سلام النجديين لا يعجبني لأنه بارد لا حرارة فيه
ولا روح ، والواحد منهم - أمير اكان او غير أمير - يمد اليك
كفا مفتوحة مسترخية كأنها قطعة من الجبن الطرى لا عظم فيها
ولا أعصاب لها ، فاذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك بل
ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء ، ثم يسحبها فى فتور وضعف ،
فتخجل وتبرد الحرارة التى تناولت بها يده ، ويحمد الدم فى عروقك .
وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه ، الى غرفة أخرى
ذهبوا بنا اليها وهناك سقونا عصير الليمون ، ثم مالبتنا أن دعينا
الى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنأناه مرة أخرى وأديرت علينا
القهوة النجدية ، وأمرها عجيب ، ذلك أنها خليط من البن والمرى
والجبهان ولا أدرى ماذا أيضا ، وطعم البن يختفى بين هذه الاخلاط
الحريفة ، ويحيثونك بها فى أبريق كبير من النحاس ، يحمله الخادم
فى يسراه ، وفى يمينه الفناجين الكبيرة بعضها فى بعض فيصب من
الابريق مقدار رشفة فى الفنجانة و يقدمها لك فتقلب الفنجانة على
فمك وتزها لينحدر ما فيها بسرعة ، فاذا راقتك القهوة مددت يدك
بالفنجانة فى صمت فيصبك رشفة أخرى وهكذا ، وإلا هزرت

الفنجانة فينصرف عنك

وقد كنت وأنا في مجلس الأمير متعبا وكان رأسى أحسه
ثقيلًا ، وخفت أن انام أو اهوم ، فقلت انبه نفسى بالقهوة ، فرجوت
من الخادم أن يملأ لى الفنجانة فان هذه الرشقات الضيئلة لا تصنع
شيئا ولكنه أثر عاداته فذهب يصب لى رشفة بعد أخرى وأنا
أناديه بعد كل واحدة وأرده الى ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن
يذهب عنى فلا يعود ، فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم
الفنجانة وصاح وهو يمضى عنى ضاحكا « يارجل ! »

فقمت وراه وأنا أقول : « ما هذا الكلام الفارغ؟ أريد قهوة
حقيقية لا لونا فى الفنجانة ! تعال هنا ! »

فاسرع الى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر .

قلت « الخبر أنى أريد أن اشرب قهوة حقيقية ، وهذا الرجل
يضحك على و يقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة لا يسيل ولا يحل الى
حلقي منه شىء . هذا هو الخبر - ثم هذا لسانى (وأخرجته)
بذمتك هل ترى عليه أثرا للقهوة ! »

فقال الرجل « لاعليك . تعال ياهذا . أترع له الفنجانة »
وقد كان .

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا يجيئوننى بها فى
كل مكان قهوة حقيقية لاشك فيها ولا فى مقدارها ولا فى طعمها

ولا في أثرها . ولكنها سرقت النوم من جفوني ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة .

وعدنا الى دار الضيافة لنستريح فاتفق ان لقيت في الطريق واحدا لم اشك في انه نجدى وكان فوق نجديته قصيرا ، فاقبلت عليه وقلت هذه فرصة ، وقلت :

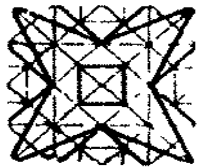
« كيف حالك ؟ ان شاء الله بخير » .

واهو يت على كتفه فجذبته على نحو ما رايتهم يفعلون ومططت شفتي استعدادا لتقبيل انفه ، ولكنى لم احسن قياس الابعاد وعمل الحساب اللازم ، وجاءت الجذبة اسرع واشد مما ينبغي فوقع فمى على فمه واصطدم الانفان

فلما افاق من دهشته ، قلت له على سبيل الاعتذار ، وانا اتلظ واممصص بشفتى :

« لامؤاخنة ! لقد اردت ان اقبل انفك ، ولكن التدريب ينقصنى . على كل حال ، الخيرة فى الواقع . السلام عليكم ، .

وذهبت أعدو ولحقت باخوانى وهم يهمون بالعودة الى وقد توهموا لبلاهم اننا اشتبكنا فى مصارعة .



بين مكة والكندرة

اشتريت وأنا جالس في « دار الضيافة » ، أن ادخن « نرجيلة »
او « شيشة » كما يسمونها في مصر ، ولست من هواةها ، ولكنى
افتقدت منظرها في مكة ، وكنا في جدة ، كلما دخلنا في بيت
يحيئوننا بعدد من هذه النراجيل على اشكال شتى وحجوم مختلفة
والوان عدة . فمنها ماهو من الفضة او المعدن المنقوش أو
المطلي بالذهب . ومنها القصير والطويل ، والذي فيه صنعة والسادج
الغفل ، والذي خرطومه من المخمل الأرجواني أو الأخضر ، الى
آخر ذلك بما لا مرجب للتقصي فيه . واهل جدة يستعملون
للنرجيلة طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة اخرى لم أسمع بأسمائها
من قبل ، تجعل له أرجأ قويا وتترك المرء - على ما سمعت
- بحلم .

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل في جدة ، ولا أثر لها في
مكة . وخطرتلى - على سبيل التعليل - أننا هنا ضيوف الحكومة
والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين ، على الأقل في
حضرتها ، وفي دورها . غير انى لم استرح الى هذا التعليل ، وقلت

إن الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم ان يقترحوا علينا أن
يجيئوننا بواحدة ، فانا مصريون ، وما لا يجوز للـسكى جائز
للمصري ، ثم انهم يدخنون السجاير فلم لا يتخذون النراجيل ،
وكله تدخين ؟ وعلى ذكر السجاير أقول إن القوم فى الحجاز
لا يعرفون منها سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه
ويصدره اليهم « ماتوسيان » . وقد يكون فى رخصه شك ، ولكنه
ردىء على التحقيق ، يتخذة السائق كما يتخذة الوجيه السرى ،
فالدعوقراطية كما ترى بخير هناك ، وابرز عناصرها وأقوى مظاهرها
هو « ماتوسيان » .

واعود الى ما استطردت عنه ، أعنى الى النرجيلة ، فأقول انى
اشتقت ان اضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكىء
بكوعى على حسبانه صغيرة وان أضع رجلا على رجل وأدنى خرطوم
النرجيلة من شفتى وارسل الدخان الكثيف الى رثتى ومعدتى بل الى
اخمص قدمى ، ثم اردة من فمى وانفى وعينى واذنى وانفجر بالسعال
القوى كأن بركانا انطلق من جوفى ، واطل بعد ذلك بضع
دقائق والدخان يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب
اندلعت فى جوفه نار الحريق ، كما رأيت اهل جدة يصنعون .
ولكنى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه المتعة
البريئة ، كما رضت شيطانى على الكف على ابتغاء الويسكى ، وآلمنى

ذلك - كما يسهل ان يدرك القارىء بغير عناء - فرأيتنى أناجى
نفسى واعزيتها بأن أهل جدة مدللون على خلاف أهل مكة - هناك ،
انى فى جدة ، يحتلى المرء مظاهر الترف والنعمة ، ويحس ان للقوم
دلالا على الحكومة - او دالة إذا شئت - وان الحكومة توليهم
من الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له مشبه فى مكة ، وتطلق لهم
فى امور نصيبها منها فى مكة التشدد . ولقد قضينا فى جدة أياما لم
نشعر فى خلالها بأن للحكومة وطأة تحس ، ولكن أثر الحكومة
ووجودها ملموسان فى مكة فى كل مكان .

وقد أكون أولاً أكون مبالغاً فى هذا الذى عزيت به نفسى
عن حرمانى لذة النرجيلة ، ولكنى أعتقد أنى غير مخطئ جداً فيما
شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة ومكة من حيث سلطان
الحكومة ، فان قائم مقام جدة أى حاكمها ، تاجر ، وهو يجمع بين
التجارة وبين أعمال وظيفته . وخلق بالمصرى أن يعجب لهذا
وأن يرى فيه شذوذاً عن المألوف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف
أن يشتغل بالتجارة . ثم أن من الحقائق التاريخية أن الجيش
السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبث أو يتلكأ ،
ولكنه لم يقتحم جدة بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب
عليها حصاراً خفيفاً لئلا يمنع أن يتصل ما بينها وبين مكة .
ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع المئون عن مكة ، ولكن من المحقق

أن الدافع الأول الى ايثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة
أن في جدة قنصليات أجنبية ، وقد خشى السعوديون أن تصاب
دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ
منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه ، فبقى
الجيش محيطا بجدة شهوراً حتى نفذ المال وانقطعت موارده عن
الملك، السابق على بن الحسين ، وتأخرت رواتب الجند وفشاعليه
الأمر ، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة
بريطانية محتفظا من كل ملكه الذي نزل عنه « بسيارته وسجاجيده
وخيله . ؟ ؟

وكأنى بوجود الأجانب في جدة قد جعل لها مع الأسف
مركزاً خاصاً وبسط عليها ضرباً ملطفاً من الحماية العامة وجعل
الحكومة تتخذ حياها مسلكا هو في جملته ألين من مسلكها في
البلاد الأخرى . ويقينى انه لو كانت الحكومة السعودية اقوى مما
هى وأوفر عدة واتم سلاحا واقدر على الدفاع عن شواطئها وثغورها
لاختلف الحال وتغير الموقف ، ومن اجل ذلك يتوخى جلالة
الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع ، وذلك
ليتسنى له ان يصلح أموره ويرتب البيت ، كما يقول الافرنج ،
ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر ما لا مفر منه
من وجوه الاصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده .

وقصدنا بعد ان استرحنا الى وكالة المالية ، ويتولاها نجدى قح ، قال لى المسترفيلبي أنه من امهر الرجال واذكاهم واحذقهم فى سياسة المال ، وغرفته بسيطة وفيها مكتب اجلس انا فى مصر الى واحد أنخر منه وأجمل ، وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن ان تصور معه ، ثم رغبت الحاشية ان تصور هى ايضا فكان لها ما ارادت . والنجديون يسمون الصورة الشمسية « العكس » ولا يرون فى التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع .
وفى وكالة المالية القيت خطب ترحيب - لا اذكر الآن بمن على وجه التحقيق - وتهنئة للأمر وجمالة والده بلا أدنى ريب . وهناك ايضا جىء باثنين من الحجازيين ، هما موظفان فى حكومته وعملهما طبع « طوابع البريد » ، فقدمهما الوكيل الى سمو الأمير واطلعه على انموذج من الطوابع التى عملت تذكارا لهذا اليوم - يوم المبايعة .

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتى مريض ، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية ، وأمراض النساء وغيرها ، وفيه اطباء مصريون ، وبئر ارتوازية حديثة تمده بما يحتاج اليه من الماء ، ثم قصدنا الى دار الكسوة التى اسلفت الكلام عليها ، ومن ثم الى التكية المصرية وهى تؤدى واجبا انسانيا جليلا

وجاء وقت الغداء فتناولناه في دار الضيافة على الطراز الأوربي أيضا ، ولشدهما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية او البدوية ولكنهم في الحجاز ابوا ذلك علينا وضمنوا بمتعته ، واحسبهم توهموا ان اطعامنا على الطريقة العربية غير لائق ، او ان ذلك ينطوى الى شئ من الاستخفاف بنا ، او هو ينافى ما يقتضيه بواجب الاكرام .

ثم ذهبنا الى السوق ، وهو على المسعى ، وقد كرهت ان أرى الدكاكين في بناء الحرم نفسه ، وملنا الى حارة ضيقة شبيهة بخان الخليلي في مصر ، وفيها كل ما في الخان ، والتجار فيها خليط من أهل مكة والهنود والفرس وغيرهم ، وأكثر ما في السوق هندي أو فارسي ، ودخلنا دكان هندي طويل له مساعدان ، فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرئ يتكلم ويطلب شيئا ويسأل عن ثمنه ، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن الى الهندي الطويل ، ولم يكن معي ولا مع زميل لي مال ، فقد خافنا مامعنا في جدة ، فاقترضنا من اخواننا ، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالندي سهل فهمه ، ذلك أن الجنيه المصري يساوي عشرة ريالات حجازية ، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا ، ولكن الاطراد يقف هنا ، فاذا ذهبت نحسب الجنيه بالقروش

وجدته يساوي شيئاً عجيباً : مائة قرش و بضعة قروش أخرى
نكون تارة اثني عشر قرشاً وطوراً أربعة عشر ، وما أظن به إلا
أن قيمته بالقروش تضطرب تبعاً لحالة الجو ، فما في مكة ولا في
جدة بورصة ، وإذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطيء
بالذنب للتجار وليس لي ، فقد كنت أجد قيمة الجنيه عند تاجر
غيرها عند سواه ، واتفق أني كنت أتوغل في السوق فالفيت
لقيمة تهبط بعد كل خطوتين قرشاً ، نخفضت إذا أنا مضيت في
طريقي داخل في السوق ألا أدنو من آخره إلا وقد صار الجنيه
نصاصة ورق كالمعاهدات الدولية ، بل خفضت إذا أنا بلغت نهاية
لسوق أن أجد أني أصبحت مديناً !! لذلك ارتددت بسرعة
وليت خارجاً - لاهاربا - إلى أول السوق ، وفي يدي جنيه منشور
- مما اقترضت - ألوح به للتجار وأصبح رافعا القيمة بعد كل بضع
خطوات :

« الأادو ! الأتريه ! يابلاش ! بمائة وعشرين ! الأادو !
بمائة وخمسة وعشرين ... »

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشتري مكة كلها
بجنيهي ! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا
في وجهي بردوني إلى داخل السوق ويشورون في وجهي كما يفعل
ناس ليصدوا جواداً جامحاً ! وتنهت الحكومة إلى الخطر المحقق

بعاصمتها فأقبل على واحد من كبار رجالها يقول :
« لقد ركب الأمير فهل لتلحق به »

ولكني كنت مشغولاً بفرصة الغنى التي أتاحتها لي ارتفاع
قيمة الجنيه في أول السوق وانخفاضه عند آخرها ، فلم أعبأ به
ومضيت أصيح :

« قبل أن نركب ! الأادو الأثريه ! أبيع بمائة وأربعين !
هل من مزيد ؟ بمائة وخمسين ؟ »

فجذبني الرجل وفي وجهه كل أمارات الفزع والارتياح
وصاح بي :

« يا أخى أجول لك ! الأمير ركب ! يجب أن تلحقوا به لأن
المسافة طويلة »

فأدركت أنه يريد أن يصرفني عن ربح حلال وقعت عليه
بذكائي ، فنجيته عني وانطلقت أعدو إلى أول السوق ثم وقفت ألهث
وقدرت في نفسي أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش ،
وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم يحملونني ويضعونني في السيارة !
وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت ، فقعدت وأنا أقول
لنفسي : « أن هذا ليس من الانصاف في شيء ! وسأظل ما حييت
أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت على وبالتعويض أيضاً ! »

ولن يضيع حق وراءه مطالب . . وغلبني النعاس في
الطريق الى جدة واستغنيت بالأحلام عن حقيقة ما فاتني —
كذبى أبداً

والكنندرة قصر على دقائق من جدة ، وفيه نزل حلاله الملك
عبد العزيز لما سلمت ، واستقبل أعيانها ومثلي الدول فيها قبل أن
يدخل جدة في اليوم التالي ، وفي هذا القصر أقيمت حفلة الشاي
التي حضرها الأمير وسبقنا سموه إليها ، ولا عجب . فان سموه يركب
الرولزرويس ولا يتلصق في الأسواق ولا يرغب الغنى من وراء
اضطراب قيمة الجنيه بين التجار ، ونحن نفعل ذلك — ولنا العذر
— ونركب شيارتي بأبي سائقها « صابر » أن يسرع بها لئلا يفسدها
لأنها جديدة ، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنلي جداً .

ولا حاجة بي أن أقول شيئاً عن الشاي فإنه ككل شاي ، وقد
شربناه واقفين — كل نحو عشرين الى مائة مثقلة بأباريق الشاي
واللبن وألوان الفطائر واللمائز والولائق والرصائع ، وكان ممثلو الدول
يحفون بالأمير ، والقائم بأعمال المفوضية البريطانية ووزير
الروسيا المفوض يتنافسان على الحظوة عنده ويتسابقان الى اكتساب
وده . أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أو هم في الحجاز سوى بطوننا ،

فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء ، وقد حمدنا لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بالحاحهما عليه ومطاردتهما له .

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش ، في الفضاء الذي أمام القصر ، ووقف سمو الأمير وأدانا من صفه لتيسر الرؤية ، فمر المشاة النظاميون في ثياب الخاكي ومعهم أسلحتهم المختلفة ، ثم تلاهم من سميتهم حينئذ الباشبوق وأنا أعني بهم البدو ، في ثيابهم الفضفاضة المختلفة الألوان ، وكانوا على كونهم بدوا يمشون صفوفًا منتظمة ، وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجاة صفوفًا متراسة لا تلتوى ولا تتعوج ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جمل جملا ، وعليها « الرجاجيل » كما يسمون « الرجال » مثقلين بأدوات الكفاح ، وأعقبته هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو لليدان أو غير ذلك مما لا أحسن بيانه وتفصيله ، فما أعرفني رأيت من أنواع السلاح إلا ما يلعب به الأطفال في الأعياد ، ولقد كنت في الحجاز كلما رأيت رجلا مدججاً بالسلاح أراني أدنومه وأمد يدي ، وقد هممت أن ألمس سلاحه وأتحسسه بكفي . فلولا الخوف من أن يظنوا بي أني أريد السرقة أو الخطف ، لآمتعت نفسي بلمسه .

وأبصرنا من بعيد محملاً صغيراً مقبلاً علينا فعجبت لهم كيف
يعدون المحمل المصرى صنماً ثم يتخذون محملاً مثله ! وأشار
الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد منا وقتئذ معناها أو المراد
بها ، وحسبناها أمراً بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون في
الحرب ، فقد عادوا واحداً في أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم
ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو
شهبوا السيوف ، وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم
مفزعجة ، ولورآهم القارىء وهم يعدون بجيادهم ويطلقون البنادق
من وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحراهم وشعورهم منفوشة.
لحسبهم بعض الجن .

وصفق الناس وانتفتت الأمير باسماء ودار ليرجع فسألت واحداً

« والمحمل ؟ لماذا لم نره ؟ »

فقال : « لقد غاب »

قلت : « غاب كيف ؟ »

قال : « لم يبق له أثر »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « أمر سموه به فأبعد »

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن

انقطع المحمل المصرى، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمح الأمير أوماً الى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومرقوه . فكأنه لم يكن !

الى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقاً فى مجاملتنا ومراعاة

إحساسنا

وقيل : اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو إدارتها ، وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها ، وان ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك . فسالت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى ، فتناولت ورقة وقلها وألقيت نظرة على ساعتى الافرنجية وشرعت أحسب . ولا أكنم القارىء أنى أخيب خلق الله فى الحساب . ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة - منذ نحو عشرين سنة - فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب ، فاعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئاً ، فقصدت الى « ناظر » المدرسة الخديوية التى نقلت اليها - وكان انجليزياً - وقلت له : « إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرئ يصلح لكل شئ » ، ولكنى عرف من نفسى أنى لأصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب

خاصة، وأصارك أنى لأصدق أن واحدا في واحد يساوى واحدا
« هذا » كما يقول شاعر عربي « كلام له خبيء » ، معناه ليست لنا
عقول « وقد تكون أو لا تكون لنا عقول ، هذه مسألة خلافية
ندعها الآن ، ولكن المحقق عندي أن العلوم الرياضية وفي جملتها
هذا الحساب لا تدخل في دائرة عقلي ، فهل لك في عوني على
ما أريده ؟ »

فضحك وقال : « وماذا تبغى ؟ »

قلت « تعفينى من التدريس للفرق العالية ، وتقنع بأن تكل
الى تلاميذ الفرقة الأولى ، أعنى الحاصلين على الشهادة الابتدائية
فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ الدرس أو لا فأولا ، ثم ألقيه
عليهم ، فتتعلم معاً ، وفى خلال ذلك تبذل وساطتك لتردنى مدرس
ترجمة كما كنت

فسرته صراحتى ووعدنى خيراً ، وشرعت فى العمل ، وكنت
أحفظ الدرس جيداً وأراجع زملائى ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم
ما حفظت ، وقد وفقنى الله فى الهندسة والجبر ، أما الحساب فأعوذ
بالله منه !! كنت أخطئ فى كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم
أكن أكتمهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى ، وان
الوزارة هى المسئولة عن خلطى وتخبطى ، وانصف التلاميذ فأقول
انهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وحفونى بعطفهم ولم يبخلوا

على بايضاح مايشكل على وهدايتي الى الصواب حين أضل ، وكنا
أحيانا - اذا استعصى عليهم افهامى طريقة الحل - نقضى بضع
دقائق فى زنب سوء حظى وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت
نفسه بالعطف على والمرثية لى « كيف ترتكب الوزارة مثل هذا
الخطأ الشنيع فتعهد الى تدريس العلم الى جاهل به ؟ »
فيحمر وجهى أو يصفر - لا أدرى فما كانت أمامى مرآة - وأقول
بلهجة الصابر على قضاء الله فيه

« أنا عارف ؟ قل لها ياسيدى ! الأمر لله والسلام »

ولم ينقذنى الا مفتش انجليزى جاء على عادته ليشرف على
سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته ، وكانت مجاورة
للغرفة التى أنا فيها ، فأوصيت الخادم - أو الفراش كما يسمونه - بأن
يدعوه الى ، حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فلما دخل
على رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به الى مقعدى ومكتبى ،
وهناك سلمته راسة التحضير وكراسة الأسماء ، وأصبع الطباشير
ومسحة السبورة وقلت له

« التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتى وأدواتى ، فالسلام عليك
ورحمة الله وبركاته » وخرجت ، فجرى ورأى وأدركنى أمام غرفة
الناظر وقال :

« ان هذا جنون . فعد الى فرقتك »
فقلت « جنون ؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا ؟ لقد
صارحتكم مائة مرة بانى حمار ، فماذا تريدون ؟ ان لى ذمة ، وذمتى
لا تقبل أن أخضع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم »
قال « ولكنى اكدت لك أننا لا نجد مدرسا للرياضة فيحل
محلك . فانتظر حتى نجد واحدا ثم نعيدك الى الترجمة »
فقلت : « كلا ! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس . وانا
مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش »
فضحك ، وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا ولاأطيل :
أقنعانى بالعود الى فرقتى على ألا يطول عذابى إلا أياما معدودات ،
وقد كان .

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرني القارىء اذا كان قد
عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الافرنجى ، ولقد ملأت والله
الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الافرنجى فى
الحجاز اذا كانت الثالثة بالحساب العربى فى الحجاز أيضا ، فالفيتها
تكون كل ساعة ما بين الأولى والرابعة والعشرين الا التاسعة
مساء كما زعموا ، وقد اتفق مرة أن انتج حسابى الساعة التاسعة
ولكنها كانت التاسعة صباحا ؛ فمزقت الورقة يائسا ورميت القلم
من النافذة .

وملت الى واحد وهمست في أذنه
« أرجو أن تصدقني ! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة ؟ »
فاخرج ساعة ونظر فيها وقال « ساعتان ونصف »
فقبلته بين عينيه وقلت له « انك آية من آيات الله في الذكاء
وحدة الذهن . ولو كان الحسد في طبعي لحسدتك . فان من
المدهش ولا شك ان تستطيع عمل كل هذا الحساب المضني في
ربع ثانية ! فتح الله عليك ! فتح الله عليك ! »
وخرجت أعدو الى غرفتي ووقفت أمام المرأة وقلت لخيالي فيها
« اسمع يا مازني . ان هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء
الدول وقناصلها فينبغي ان تكون فيها فخراً لبلادك وعنوانا على ما
بلغته من الحضارة والرقى ، لا عاراً عليها وسبة لها ، فالبس ثياب
السهرة وان كانت من طول ما طويت في الحقيبة قد تجعدت
وتثنت وصارت كالوجه الذي غضنته الشيخوخة ، ولكن هذا حري
بأن يغتفر في الحجاز . وعندك في هذه الحقيبة كتاب في آداب
السلوك في المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة ، فان في ساعتين
الكفاية . أفهمت ؟ اذن فالى العمل ! »
وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها بسرعة
وأخرجت بذلة « الاسموكنج » ، والقميص الأبيض والرباط
الأسود ، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة ، ونضوت ما على بدني من
التياب ، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه

وأنا نصف عار وأجريت عيني في الفهرس حتى استوقفني هذا
العنوان

« فن الانحاء »

ففتحت الصفحة التي يشير اليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور ،
ما ترجمته

« ان الانحاء ، ولمن يكون وكيف يكون وفي أى وقت يكون ،
فن قائم بذاته ، « واتقان ذلك وتجويده ، والحدق فيه والاستاذية ،
اكبر ما يمتاز به الرجل المهذب »

فخفق قلبي طربا وشاع في السرور علوا وسفلا ، وبعد أن
قضى بدنى وطره من الوثب والقفز - او الرقص اذا آثرنا الرقة
في التعبير - عكفت على الكتاب لالتهم منه هذا الفن الجليل
فقرأت

« وأول ما يجب على المرء ، أن يكون وضع القدمين كأول
وضع لهما في الرقص »

فكفأت الكتاب على ركبتي وذهبت أحضر الى ذهني وأتمش
هذا الوضع الأول في الرقص ، فطافت برأسي صور شتى للاقدام
بما كنت أراها في المراقص المصرية ، غير أنه ما من صورة كانت

تشبه الأخرى ، فألححت على خيالي وكددت خاطري وحصرت ذهني في هذا الموضوع وطردت عنه كل ماعداه حتى صار رأسي وليس فيه الا أحذية « ضاحكة اللاءاء » تروح وتجيء وتنساب تحت السيقان ال..... »

وخفت ان أترقي في التصور من الأحذية الى ما فوقها فيتم فساد العمرة التي أفسدها المطوف وأشياء أخرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول .

ثم قرأت

« وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب ، ثم يحني الرأس و يليه الجسم مما يلي الردفين وتكون اليد اليمنى في أثناء ذلك ترسم في الهواء خطا مقوسا بلباقة وإناقة » ، وما ينبغي توخيه والتدقيق فيه والحرص عليه أن « يكون تعبير الوجه فاتنا على قدر ما يستطيع صاحبه . ونظرة العينين سايية ساحرة . » أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذي له التحية ، الخ الخ

وطويت الكتاب وأطرقت ، فما كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملا محقدا الى هذا الحد ! ومن لي باللباقة ومن أين أجيء بالرشاقة إذا وسعني ان أؤدي هذه الحركات ؟ ان كل ما أحسنه هو ان اهز رأسي هزا متتابعا — من أعلى الى أسفل ، أو

من اليمين الى اليسار - إذا أردت الاعراب عن الموافقة أو المخالفة
كسلا منى عن النطق بنعم أولا ، وقد ألقى فى الطريق بعض من
أعرف وتكون بينى وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول ان
أومىء اليه برأسى واذا به يتجهم ويحدجنى بالنظر الشرر ، فاعجب
لسوء أدبه فى رد التحية ، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهز رأسى
بل أحرك حاجبى فكان الناس يحملون هذا منى على محمل السخرية
ولو علموا لعذروا .

وقلت أتدرب ، فوثبت الى قدمى واستويت واقفا أمام المرأة
وقلت وانا ابتسم لخيالى فيها وانحنى :

« ياسيدى الأستاذ المازنى انى أحبيك وأؤكد لك انى خادمك
المطيع وأدعو لك بطول العمر ، ثم اعتذرت بسرعة فقد شق
على منظرى ، وكنت لا أزال نصف عار ، وعجلت بارتداء
الاسموكنج حتى اذا فرغت من ذلك خرجت انخطر وانحنى بعد
كل خطوتين او ثلاث انحناء عميقا كأنى مائل بين يدى ملك
الملوك على الأقل أو أوتن امرأة فى العالم واذا بطربوشى تكبسه
على رأس بطن الخادم فتراجعت قليلا لأفسح لى ورميت اليه
انحناء عميقة وقلت وعلى فى ابتسامه لم يخالجنى شك فى عذوبتها
بوسحرها

« سيدى انى اعتذر وأحبي فى شخصك فضائل الطاعة

والاخلاص والأمانة »

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصيب العرق البارد من جبينه وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذي يبحث عن نافذة يثب منها حتى اذا وقعت عينه على الباب ولى هارباً ، فقلبت هنيهة أصلح من شأني وأرد طربوشى عما جار عليه من وجهى ولما لم أجد أمامى اومعى أحداً من خلق الله استقبلت الباب والقيت اليه الحناء بارعة واذا باصوات من خلفي تصيح بي :

« إيه ده بس فى عرض النبي ؟ طلعت البلا على جتة الخدام ، فدرت على عقبي وجدت عليهم بالحناء متقنة وقلت وانا أرسم بيمنى قوساً مزدوجاً :

« سادتى . انى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى الأمين ، فقال أحدهم وهو يشور بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشاً من الذباب

« خادم إيه وزفت إيه ؟ هل جننت حتى تنحنى للباب وللخدم والهواء ؟ ما معنى هذا ؟ »

قلت « عفواً ، ولكنى أظن المعنى واضحاً جداً . وكل ما فى الأمر أن الشوق الى الانحناء لى لى ولما لم أجد خيراً من الخادم او الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون إطفاء حرارة الشوق الذى اكابده ، فأما وقد تفضلتم على بالظهور لى فى الوقت المناسب

فاسمحوا لي أن أقوم بتجربة أخرى على مرأى منكم وأرجو أن
تجعلوا بالكم على الخصوص - الى سحرا ابتسامتي فاني أريد أن
اطمئن عليها »

وردت قدمي اليسرى خطوة ورميت الى كل منهم انحناءة
باهرة ، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفاً بكف وقال أحدهم
« هذا جنون مطبق »

فقلت « كلا ! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه ان الانحناء
البارع اكبر ما يمتاز به الرجل المهذب . وانا مستعد أن أعيركم
إياه فان العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق . »
ولا أطيل . عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين برهة ثم
نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقال لي قبل أن يدخل
الخادم

« لا أدري من أين تجيء بهذه الكتب ، وان كنت عظيم
الشك في وجود كتاب كهذا ، ولكن الذى أريده ان الخادم قد
ارتاب في عقلك فارجو - ألح عليك - أن لا تفعل امامه شيئا
وكفى ما فعلت »

فلم أعن بالرد عليه وشربت القهوة التي طلبها في صمت ، فقد
كنت راضياً عن نفسي معترأ بما أحرزت دونهم من براعة وحنق

والجو في الليل يتردد في جدة ، وكانت الساعة قد قاربت
التاسعة مساءً (بالحساب الافرنجى) على مازعموا حين أعدت لنا
السيارات لركوبها الى الكندرة ، فقلت لسائقنا الجديد وكان
هنديا - فقد هجرنا صابر واملنا وجفانا بعد مكة - انزل الغطاء
فانى أريد ان تكون السيارة مكشوفة ،

فصاح زميلي « ولكن الجو بارد والرياح عنيفة »
فقلت « اسكت انت من فضلك . أتريد أن تحرم أهل جدة منظرنا
في ثياب السهرة ؛ انه منظر لا يروونه الا في الندرة القليلة والفلتة
المفردة ، وحرام علينا ان نضن به عليهم »

فقال « يا أخى ان الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر ،
فاصنع معروفًا ودع الغطاء رفوعا . »

قلت « كلا انا أيضا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة ، وليس من
الانصاف لى ان أرتديها واتحمل عذاب هذه البنيقة (اليباقة)
الناشفة وان اختفى وأتوارى عن العيون . اذا لماذا نجشمت كل
هذا التعب ؟ »

ولا أحتاج أن أفول إن زميلي في السبارة اقتنع بسداد رأيي ،
وانا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جدة الى الصحراء
في طريقنا الى الكندرة ، ولم تكن المسافة طويلة فقد كنا نرى اضواء
القصر بعد أن جزنا سور جدة ، وكان القصر يعجب بالناس ويزخر

بالضييفان ، فجعلت اطوف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب ابن
ترى سناً كل وليس في القصر شبر خال؟ وضحككت في سرى وقد
تذكرت قول المتنبي في كافر

جوعان يا كل من مالى ويمسكنى

كما يقال عظيم القدر مقصود !

وخطر لى أن هذا حالنا ! ندعى دثات الى القصر ونحجز فيه ولا طعام!
واستحييت أن أسأل وأنسانى القلق على العشاء ، والخوف من عض
الجوع ، ما أتعبت نفسى حتى مهت فيه - أعنى الانحناء - ولكن
وجهى كانت مرسمه عليه ابتسامه تشجع الناس على المصارحة
فدنا منى واحد وقال

« الا تحب أن نرى مكائك من المائدة ؟ »

وهما تذكرت الفن الذى حذقه فتراجعت واخفيت ثم استويت

وقلت

« سيدى . انى نحت أمرك »

فحملق فى وجهى وتلعثم . ولا عجب فما له عهد بمثل هذه الاستاذية .

ولم يزد على أن قال « تفضل »

فجدت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت

« سيدى . انى ارجو أن تنفيل شكرى الخالص الذى يفيض به قلب

يعرف الجميل ولا ينكره و »

فهروا الرجل ، وبدوا لي أن الحزم أن أهروا وراءه لثلا يهرب
أو يختفي في الزحام ، والدنيا كما تعلم فرص ، والضيوف هنا مئات .
وأى طعام يمكن أن يكفي هؤلاء جميعاً ؟

وانحدر دليلي الهارب ، من سلم خافي لم أره من قبل ولم أظن
لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه ، وانحدرت وراءه الى
الصحراء ، أو على الأصح الى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج
من نسيج الخيام الموشى وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضا على
سبيل الاحتياط ، ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا
المدعوين بأسمائهم ، فكل مكانه الذي لا يعدود ، واعتدوا لكل
واحد ما يحتاج اليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك
على الطريقة الأوربية ، وأقاموا في قلب المستطيل فوق بشر يسقى
منها القصر ، شبه مسرح زينود بسعف النخل ورفعوا عليه صورة
كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود ، وجعلوا فوقها
رايتهم وهي « بسم الله الرحمن الرحيم » وعليها سيفان لاشك
انهما ماضيان . وقد أعجبنى ذوقهم في حجب البشر عن العيون
وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها .

وآن أن يطعمونا ، وكان هذا قد آن جدا قبل ساعة ، فجلس سمو

الأمير فيصل في الصدر والى يمينه معتمدو الدول الأجنبية ، والى

يساره ركي باسا ونحن نتلوه ، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء
الحجازيين ، وتوسط فؤاد بك حمرة مدير الشؤون الخارجية ضلعاً
آخر من المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفي جملتهم
قنصل مصر وان كان غير معترف به ، وهم يدعونه بصفة غير
رسمية الى الحفلات ويمادها على الرغم مما بين البلدين من الجفوة
الحكومية المتكلفة التي لامسوغ لها ،

وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف - فوق المائدة - كرسي
واطيء عليه طاشت كبير غاص بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر
والزبيب وما الى ذلك وفوق هذا كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية
وتتضرع الى أنوفنا فننظر الى الأمير فلا نراه يمسه فنكف وتنهد ،
وقد طافوا علينا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظما
جداً ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت لنا
كروش كروية عظيمة ، وعلى كثرة ما أكلنا ، أعترف اني قمت متحسراً
على الخروف الذي كان أمامي ، ولا أدري لماذا يذبحون كل هذه
الخراف الجميلة ويحمرونها اذا كانوا لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب
منها شيئاً ؟ وقد خامرنا الشك في انها خراف حقيقية كانت قبل
ساعات تشغو وتقول « ماء ! ماء ! » وقلت لعلها رسوم مجسمة على
صور الخراف ، ولكني لم أر أثراً لهذا الفن في الحجاز .

ونحيل الى ان حكومة الحجاز تعتقد أن ضيوفها شرهون ،

والإلتوخت بعض التقصد فيها قدمته من صنوف الطعام ، فان ما
ادبر علينا كان يكفى أمة بأسرها ، على ان العرب جميعا يببالغون فى
مقدار ما يطعمون ضيوفهم ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة البداوة
وما ورثوه من اخلاقها وعاداتها ، ولكنه اسراف على كل حال ،
ولو كان لى من الأمر شىء لطابت الحجر على الحكومة والناس
جميعا هناك .

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على
مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز ، فبين ما قامت به الحكومة
السعودية من الاصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة ،
و رحب بالمدعون جميعا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب
وأعرب عن أمله ان نكون رسل سلام ووثام بين الشعبين
الشقبين ، فأجابه زى باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى ثم
حمس فانطاق يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب ، ولم يفته أن
يشبع علينا لانا طفنا بالسيارة ، متخذنا هذا دليلا على أن الاسلام
تسع لكل ما تجىء به الحضارة ، ونسى - عفى الله عنه - ان طوافنا
السيارة كان باذن سمو الأمير فعلى الأمير حسابه .



في وادي فاطمة:

كان بيتنا - أعني بيت العويني - في طرف المدينة - أعني جدة - او لعل هذا مبتدأها فما أعرف أن بدايتها وأين نهايتها ، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية الى طريق مكة والمدينة ، وأنه - أي البيت لا الطريق - يطل على البحر وعلى ما كان في عهد الأتراك يسمى « الكازينو » ، وهو الآن مهجور . وكان يومنا الخامس هو الخميس ، وهو اتفاق لم نتعمده . وفي صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا اذ كنا على طريقهم . وكان الغداء في وادي فاطمة ، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتنف وتصطف استعداداً للسير ، فجلسنا نشرب القهوة المصرية . - أو التركية كما يسمونها - وتلاغظ وتكلم جميعاً في وقت واحد ولا يصغي أحد منا إلا لنفسه ،

ثم قيل : « تفضلوا » فتفضلنا ، أعني أن بعضنا وقفوا ثم نظروا الى البافين فألفوهم جلوساً ، فقعدوا مثلهم ، فسئلوا « لماذا قعدتم؟ » فقالوا « حتى يقوم هؤلاء » ، فمضى الداعي يستنهض الآخرين

ويشد أذرعهم وهم معرضون عنه ماضون في كلامهم ، ويكرر لهم دعوته أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعي ما يفعل . ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا ينثني عن الاعراض . ثم نسير خطوات فيقف واحد و يواجه الباقيين ويضطرهم الى الوقوف والاصغاء ، حتى على السلم كان هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون أن يفف واحد بغتة ويدير الينا وجهه . وتكون أرجلنا مهبأذ في هذه اللحظة للهبوط وأجسامنا مخنية . فنردها - أعنى أرجلنا - بسرعة ، ونستوى واقفين فتصطمم الرؤوس بالصدور التي وراءها ، وترتفع الأصوات بالسخط وألفاض الاحتجاج والاستهجان .. وهكذا ...

وأجملت عيني في السيارات وسائقها ، فاذا (صابر) - ذلك الغلام الحنبلي - قد جنمنا وآثر علينا سوانا ، فترقرق الدمع في عيني وتدلى رأسي على صدري ، فقد كانت صحبته رضية وحديثه شهيا . وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم ان صح هذا التعبير . أعنى أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن السعود . فأفاده ذلك حكمة ليست لسنه وكياسة لاتكون مع الشباب . وعلماً بالدخائل واطلاعا على الخبايا ، فقد كان كما أسلفت القول في موسيقى الحرس الخاص بالحسين وبنيه ، وهو الآن عامل في شركة القناة للسيارات . غفر الله له وعفا عنه فانه

مصرى مثلنا .

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات . وعزاني أن سائقنا الهندي لا يعرف الطريق - ولا العربية - وان (صابراً) الذى هجرنا ، أمره - لأدرى بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما - أن يتبعه ولا يسبقه . كذلك قل لنا صابر مترجماً ، وأدركت أن فى (صابر) رقة على الرغم من حنباية مظهره ،

والطريق الى وادى فاطمة هو عين الطريق الى مكة ، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح بعد ذلك وعراً ، كاه حفر ونقر وصخور وتراب ، وكان الهواء قد أسكرنى فنمت ومن عادتى اذا كرىنى هم ان التمس السلوان فى النوم ، وان اتعزى بالأحلام واضغاثها عن الحقائق ومرارتها ، وهذا من فضل الله على ، ولكم قلت لمن يحلو له أن يهجرنى ويحسب أنه بذلك يعذبنى « اذا كان فى وسعك ان تصدعنى فان فى مقدورى أن اصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر » ثم اضع رأسى على الوسادة واغمض جفنى وأقول بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام ، وأذهب من فورى الى وادى الأحلام .

ولكننا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهدة حتى استيقظت بالشرر يتطاير من عيني ، فقد توهمت أن زميلي ضربنى على رأسى

وكبس طربوشى على أذنى ، وهممت بأن أمسك بتلابيبه - أعنى
بربطة رقبته - وفى نيتى أن اضيقها على عنقه حتى يخنق ، ولكن
الطريق عاجل السيارة بحفرة أخرى ، وإذا بى ارتفع عن مقعدى
- وحدى بلا معونة - وأطير بقدره الله حتى أبلغ السقف ، ثم
انحط كالحجر ، وإذا بطربوشى قد غطى عيني أيضا وهوى الى
أرنبة أنفى . ففهمت . وحاولت ان أخرج رأسى فلم أستطع ، فشددت
الطربوش من زره ، فبقى الطربوش فى مكانه وخرج الزر فى يدي .
فأهبت بزميلي الراكب معى أن يساعدى . وكان لسوء الحظ نائماً .
وكنت أنا بفضل الطربوش لأراه ولا أعرف ذلك ، فحسبته يتعمد
أن يمنع عنى معونته ، وغازنى هذا منه ، وذكرت مثلنا المصرى
العامى القائل « ضربوا الأعور على عينه قال خسرا نه ، خسرا نه ،
فتوكلت على الله ونطحته فى كرشه - فقد كان ذا كرش كمانسيت أن
أخبر القارىء - فهب مدعورا يقول « بع . بع » وأندفعت كلتا يديه
الى كرشه فوقعت على الطربوش - وكنت أهم بنطحه مرة أخرى -
فتزحزح الى آخر المقعد اتقاءً للنطحة ، وأحسست أصابعه على
حافة الطربوش مما يلى أذنى ! فجذبت رأسى الى الوراء فجأة وبقوة .
فخرج الطربوش فى يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له

« اشكرك يا صديقى . والآن هل معك دبوس ؟ »

فصاح بى « مامعنى هذا ؟ أريد أن أفهم ! حالا ! »

قلت « معناه ان زر الطربوش فى يدى ، وأنه لا يلىق ان
أبدو للناس هكذا — اعنى بغير زر ، فهات دبوسا واكسب
الشكر من صديقك »

قال وهو مقطب « ولكن هذا لا يلىق . واذا كنت حضرتك
تظن . . . »

فقلت أقاطععه « تمام . لا يلىق أدا . ولذلك ارجو أن تعطينى
دبوسا . ثم ان اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »
فقال وهو يمس شفتيه اشمزازاً
« يعنى حضرتك فاهم »

فاسرعت الى انمام الجملة بدلا منه « . . انى لا أستطيع ان
أظهر بطربوش ليس له زر ، بالضبط . واسمى ابراهيم افندى عبد
القادر المازنى »

فشور بيديه كليهما وقال « أوه . . . ! ده شىء يجنن ! »

ثم عاد فالتفت الى وقال

« يعنى إزاي حضرتك تنطحنى ؟ عمرى ماشفت كده ! دى

رحله زى الزفت ! »

فقلت « انى أراها على عكس ذلك .. أجمال رحلة قمت بها فى

حياتى ، وارجو أن تقوم بها معا مرة أخرى »

ويظهر انه يئس وفوض أمره لله ولسوء حظه فأعرض عنى وهو يقول

« ابق دور على غيرى . »

يقلت ، ان شاء الله وان كان هذا من دواعى أسفى - أعنى فى المستقبل ، وفى أثناء ذلك أرجو أن تعطينى دبوسا»

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه و نقمته وصاح
« دبوس ايه يا احى ؟ هو انا دكان مانيفاتوره ؟ ولا حضرتك

بتتريق؟ فقلت « معذرة . ليس بي حاجة الى الدكان كلها . انما اريد
منها دبوسا واحدا - أو إبرة اذا أمكن ، بل الابرة خير ، وارجو
ان تذكر أن اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »

فضحك أخيرا بعد ان ادرك مرادى وقال « طيب وحياة

ابوك تبعد عنى بقى يا ابراهيم افندى يا عبد القادر يامازنى »

فانصرفت عنه الى السائق واشرفت عليه من ورائه لأرى

هل فى صدره دبوس او نحو ذلك ، ففزع الأبله واضطرب

وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا فى حفرة

لولا ان اسرعت ومددت يدي الى العجلة وحولت السيارة عنها

- أعنى عن الحفرة - .

ولا أطيل . اضطررت أن أحمل طربوشى فى يدي ، وأن

أشكو حرارة الشمس ووقدتها حتى وجدت من يعيرنى دبوسا

أصل به الزر الى عنق الطربوش حتى نعود الى جدة .

٥٥٥

ووادى فاطمة واد - كما هو ظاهر بالبداهة - ولكنه غير ذى

زرع كثير ، فيه نخيل ولا أعناب ، وفيه موز وباذنجان ، وطماطم
وليمون ، وهلوخية وبامية ، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله
عين يتفرق منها الماء ويجرى في مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر
مجهود أن يتخطاه من جانب الى جانب ، واذا وضع يده فيه أى في
الماء - لم تبطل الا عقلة واحدة من إصبعه ، وهم مع ذلك يباهون به
ويعتزون ، وقد هزرت رأسى أسفا حين رأيته - أعنى الماء -
وقلت لواحد كان واقفا الى جانبي وأنا أقوم بهذه التجارب : « ان
لنا في مصر نهراً عظيماً ينبع في جبال القمر على قول ، ومن الجنة
على قول آخر أظنه الصحيح ، ويقطع في طريقه الى البحر الآف
الفراسخ ، وتستطيع الأساطيل الضخمة ان تغرق فيه اذا شاءت ،
ومع ذلك لا يكفيننا ولا نقنع به . ولا تزال بلادنا اكثرها صحراء
بلاقع كما هي هنا . فالحق ان بلادكم أو على الأصح فدا فكم ، تعلم
الزهادة وتروض النفس على القناعة »

وهناك في قلب الوادى رأينا الخيام مضروبة ، واحدة للأمير
وأخرى للاجتماع ، وثالثة لموائد الطعام ، فقد جلبوا الى الصحراء
ادوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا
ملعقة ، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا ان ينقلوها من غير ان
تتحطم الأنية كلها !

وكان الأمير قد سبقنا ، والمكان قد ازدحم ، وحف ممثلو الدول

بالأمير فحاء ونا بكراسى وصفوها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس ،
وبدأوا يلقون الخطب وينشدون القصائد بين يديه ، ممتدحون
فيها العهد السعودى و يصفون ما بلغت البلاد فى ظله وبفضله .
وسأنى ان التلاميذ شجعهم اساتذتهم على المبالغة والغلو ، ولم ارتح الى
سماع كلمات « العلى والمجد والقمة والسنام » الى آخر ذلك مما زعم
التلاميذ فى خطبهم ان الحجاز ارتقى اليه ، وقلت لجارلى - وأظنه
كان حجازيا - ان هذه المبالغات السخيفة هى داؤنا جميعاً ، واننا جميعاً
- فى مصر والشام والعراق والحجاز الخ - أحوج الى مواجهة الحقائق
وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سبقنا من الأمم .
وان من الاجرام ان نخدع أنفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق ، ومن
الجناية ان تنشئوا هؤلاء الأطفال على التوهم ان بلادهم بلغت أوج
المجد وارتفعت الى قمة العلى وغير ذلك من الكلام الفارغ . وانه
أجدى عليكم ان يعرف كل امرئ مبلغ ما يطلب منه فى سبيل
بلاده لتتهياً نفسه لبذل الجهد الذى يحتاج اليه ، وضربت له مثلاً
فقلت انى قد أرى شيئاً اتوهمه خفيفاً فأمد اليه يدي لأرفعه وانا
غير محتفل ، ويتفق ان يكون ثقيلاً على عكس ما تصورت ، فأعجز ،
وأخسر وقتاً وجهداً فى غير طائل ، ولكنى ، اذا عرفت أنه ثقيل ،
أشد أعصابى وأوحى إليها ان تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشئ
الذى ار يد رفعه او حمله ، فيجئ المجهود معادلاً للبطلوب فأنجح .

ومكذا في غير ذلك ، في صغار الأمور وكبارها ، فلا تغشوا
أنفسكم فان هذا شر ما تسيئون به اليها ، ولا تستهينوا بكلام تظنون
يذهب في الهواء ، فانه لا يذهب في الهواء بل يتقرر في ثرى النفوس ويرسخ
في العقائد ويستكن في ضمير القواد من حيث لا تشعرون ، واذا كان
كل مرادكم ان تثيروا الشعور بالعزة القومية ، فان لهذا سبلا أخرى .
ولا خير على كل حال في الفخر الأجوف .

وكان بين الشعراء رجل من الكويت - اذا كانت ذا كرتى لم
تخنى - وشعره سخييف ولكن انشاده بديع وقد كان وهو يلقي
قصيدته الطويلة - يغنى ويمثل ، وأشهد أن صوته صاف خالص
كصوت الفضة ، وأن غناؤه بارع وخال من التخنث والتطرى ، وأن
تمثيله حسن مطابق للمعاني مؤد لها على وجه الاحكام .

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من القائه ، فليته جاء قبل
الكويتى ، ولكنه أبي الا أن يجي قبل الطعام فكاد يصدنا عنه
ويفتر رغبتنا فيه ، ويزمنا في الشعر والأدب والعرب ، بل في
الحياة نفسها فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من القائه ، وسأظل
أستعيد بالله منه كلما ذكرته فانه يفسد على نومى ويسود العيش
في عيني ، ويغشى نفسى ويكرب صدرى ، وقد ضرست أسناني لما
سمعت صوته ، وأحسست كأن الحسكة قد شاعت في جلدى - أعنى
الجرب والعياذ بالله مرة رابعة منها أعنى الجرب والصوت - وإني

لأوصى الحكومة الحجازية أن تقطع السنة الشعراء النجديين إذا كانت أصواتهم منكراً كهذا الصوت . فإن البكم خير ألف مرّة . وهذا الصوت - إذا كان له مشبه - خليق أن يغرى الخاق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية إلى الانتفاض والثورة .

وقمنا إلى الطعام بعد هذا البلاء الشعري . وكانت ألوانه - أعنى ألوان الطعام لا البلاء - مغرية . وكانت الخراف الشبيهة في الطشوت . تخايلنا . فسألت : هل هي للزينة كما كانت في مآدبة الكندرية أم للأكل ؟ فضحكوا وقلوا بل الأكل . فالقيت السكين والشوكة . وشمرت كمي ونهضت عن الكرسي وقات لعبد من الواقفين

« ارفع هذه الصحون من أمامي وأفسح لذي القرنين ، فاني أراه لا يزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسليخ والشى والتحمير - هات عجل ، يا عبد الله ! » وليسأخني الأمير ، فاني لأحب المغالطة » فلما فعل - أعنى العبد لا الأمير - دفعت بدى فى خاصرة الحروف فلم أكد أفعل حتى نددت عن صدرى صرخة من الطبق العالى الذى يوقظ الموتى فى قبورهم ، واذا بى أدور على عقبي . وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة ، وفمى ينفخ ويقول « فو . فو . » من لسع النار التى فى خاصرة الحروف !

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شىء ! يجيشوننا أولاً بهذا الشاعر النجدى ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى

شبابنا - فقد كنا جميعاً شباناً في الحجاز حتى زكى باشا - ثم يثنون
بهذه الخراف التي حشوا بطونها جمرًا متقدداً ، ويزعمون أنهم
يطعموننا ويكرمونا ؟؟ لماذا اذن كانت ألوان الطعام الأخرى
لا تلسع ولا تحرق ؟؟ اليس من الواضح أن هذا تديير مقصود ؟؟
ومال الأمير - بعد الطعام الى خيمته ليستريح ، ومانا نحن الى
النخيل نحتمي في ذراه من الشمس ، وارتمينا على الرمال وأشعلنا
السجاير وذهبنا ندخن واذا بثلاثة من الجنود النجدية يجرون الينا
واحدًا بعد الآخر - و يسألنا كل منهم بدوره
« معك شيء من العكس ؟ »

فلم أفهم ما العكس الذي يطلبون شيئاً منه ، وحسبتهم يعنون
الدخان فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها
وعادوا يسألون عن « العكس » هل معنا منه شيء ؟ فقلت لعله
طعام أو شراب ، وأشارت الى خيمة المائدة وقلت
« هناك . لقد تركنا الخراف والله سليمة أو كالسليمة ، فعليكم
بها ان كنتم تعنونها والأمر لله . أما اذا كان شراباً ما تطلبون
فهذا هو الماء يجري عند اقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا
منه »

فمضوا عني وهم يتسمون وكانى كنت اخاطبهم باللغة
الأردية . وقد علمت بعد ذلك ان العكس معناه في اصطلاحهم

الصورة ، وكان الباعث لهم على طلب الصور منا ان رياض افندى
شحاته أعد نحو ألف صورة - في حجم بطاقة البريد - لجلالة
الملك ابن السعود وفرق أكثر ما معه في وادي فاطمة ، فتوهموا ان
كل مصرى مصور ورياض افندى أيضا ! وليتني كنته ! اذن
لاستغثت عن هذا الكتاب ولما أصبحت انجشم تعب
التسطير والتجبير ونفقات الطبع والبشر .

تم عدنا الى خيمة الاجتماع وكانت غاصت ، ولم يكن الأمير قد
حضر ، فطافوا علينا باقداح القهوة في قعورها رشفة ، فعدت الى
الاجتماع وظلت استزيد حتى فر الساقى واختفى . ولما جاء الأمير
استؤنفت الخطب ودعى زميلنا خير الدين افندى الزركلى الشاعر
السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به فى يومنا -
بل فى رحلتنا كلها - من الكلام الرصين الجيد . فنهض أحد السامعين
من البدو . وقد طرب . رخلع عابه سبخته . وهم آحر أن يخلع عليه
عباءته . ولكن اخوانه - أعنى اخوان الزركلى - خافوا اذا توالى
الخلع ان ينوء بحملها فصدوا الناس عنه وحموه - هذا الآ... أعنى الخير .
وإنا كذلك واذا بزكى باشا بدخل كالمدفع ، وصوته يسبقه ،
ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم ، فصفق له الناس
فوقف يعتذر فقال كلاما أربنا ، ذلك انه التفت الى الأمير واطلق
يقول إن أهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل

ولكنه تبين أن هذا كذب ، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقها فيها ، فقد كان مستلقياً في ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه .

وهنا وثب الناس الى أرجلهم ساخطين مستنكرين . وقلت لجارى لقد خواط الرجل ! أما كان يستطيع ان يسكت ؟ الا بد من ان يعلن ذلك على هذه الأملاء كلها ؟

ووجئنا . ووددت لو أنى تأخرت - وادركت زكى باشا قبل أن يدخل ، لأحملة على الصمت وأصده عن الكلام . غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح الموضوع واذا كل مايعنيه ان السيد عبد الوهاب يحدث ظريف وانه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه !

وقد عنيت بأن اذكر هذه الحادثة التافهة لأنى أريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة ، فانه بلا شك ابرع محدث وأظرف رجل عرفناه فى الحجاز ، وقد تعلم فى الآستانة واتقن التركية والفرنسية فضلاً عن لغته العربية . وعرف الأيام كما عرفها المتنبى ولكنه ظل مع ذلك رجلاً عطوفاً فيه رفق ورحمة ودمائة ومروءة . وليس فى الحجاز من لا بأنس بمجلسه ويشتهى حديثه ، وهو على ظرفه وفكاهته كيس وقور ذو رأى انضجته السن والتجارب وفكر

سدده المعرفة والاطلاع . ولو شئت لأطلت ولكن بحسبه هذا
منى

واشير هنا الى حادثة أخرى لها دلالتها - ذلك ان عميد
وزراء الدول في الحجاز هو الوزير الرسمى ، وقد كنت احسبه
صينيا فان به من أهل الصن مشابه ، وقد وقف يشكر للأمير
دعوته هو وزملاءه الى هذه الوليمة في الصحراء ، وكان يتكلم
بالعربية أو بما يظه لغة عربية ، ويرفع الشكر الى الأمير بالاصالة
عن نفسه وبالتيابة عن زملائه ، ولم يطل فان من العسير أن يفيض
المراء في الكلام بلغة بخرعها على البديهة .

ولكن ممثل الحكومة البريطانية - القائم باعمال مفوضيتها
في جدة - لم يرضه أن يكون ممثل روسيا هو عميد الهيئة السياسية
والذى ينطق بلسان أعضائها مخافة أن يتوهم العرب ان الروسية
مقدمة على انجلترا ومفضلة عليها ، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها
ثم نهض فاعرب هو أيضا عن شكره للحفاوة التى لقيها والكرم
الذى غمره ، وقد اشرت من قبل الى هذه المناسبة بن الروسيا
وانجلترا هناك ، والحنى انها كانت احيانا تبدو لنا مضحكة ، أو على
الأصح ممتعة .

واكل شىء آخر ، حتى الخطب والقصائد ، وقد تنفسنا الصعداء
حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا الإيدان بالأوبة الى جدة ، والراحة

ولكنهم خبايا لنا مشهداً لا أحسبني أنساه ما خييت ، فقد ساروا بنا بين الجند النظامية الى العراء ، وهناك وقف الأمير واوماً الينا فدنونا منه ورأينا صفين من البدو النجديين ثيابهم شكول ، وأكثرها زاه براق ، وفي يسراهم البنادق وفي يمينهم السيوف مصلنة وبين الصفين أربعة بروحون ويجيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف ، وهو يطول ويقصر ، ويتثنى ويتعوج ، ويميل يمينه ويسرة ويقوم ويرقد ويتمرغ على التراب ، والدف في يسراه ، وفي اليمين عصا صغيرة ينقر بها ، والأربعة وراءه يترنحون ، والصفان ، على الجانبين يتوثبان ، والمسدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص في الهواء ، والسيوف تلمع ، ومع ذلك كله غناء او شادو أو تهزيج لا أدري ، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه ، وقد اذكرني ما رأيت حلقات الذكر في مصر ، ولكن اذا كررنا في مصر يلهجون باسماء الله أما هؤلاء فقيل لي ان الغرض من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال

قالوا ، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها ، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و « حرامه » ورمى بهما في الهواء ورماهما برصاصة ونزكهما يهبطان الى الأرض ، وقيل لي في تفسير هذا ، أن

يخلع عليه الأمير جديدا عوضا عن القديم الذي اطلق فيه الرصاص
ويبقى العقال ملقى على الأرض حتى يقول له الأمير ارفعه عنها
وهذا عندهم وعد - غير قابل للاخلاف - بان يخلع
عليه سواد

وظللنا هكذا لا أدري كم ! وأحربنا أن لا نحس كر الوقت
ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص
ينطلق أمامنا وفوق رؤوسنا ، ولا أكتم القارىء أن الخوف لم
يفارقني لحظة ، و انى لم أذهل عن نفسى ثانية واحدة ، واعترف
انى كنت أخشى أن يصيبني سوء - أعنى رصاصة وأشهد لنفسى
بالآدب فقد كنت لا أزال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لى مكانا
الى جانبه فى الصف الأول أوكد له انى أستطيع أن أرى من
تحت إبطه ، و انى لا أقبل فى حال من الأحوال أن أحاذيه أو
أرفع نفسى الى مقامه . فكان يشكر لى تواضعى ويؤكد لى انه
سعيد بجيرتى ، وأنه معجب بدلاقة لسانى وقدرتى على الرطانة ،
فكنت أقول له

« ياسيدى الوزير ، انى عربى الأصل فى الحقيقة ، وهذه
البلاد بلادى فى الواقع ، فأنا لست هنا ضيفا ولا يجوز لابن البلاد
أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه »
واتراجع خطوة ، واجعله أمامى ، واتخذ منه - بهذه الحيلة - مجنا

دون الرصاص الذى اتقى أن يصيبني ، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلت له « إن انجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فان انجليزيا يروح و آخر بجي ، وليس الذاهب بأفضل من الآنى ولكنه ليس فى مصر - ولا فى جزيرة العرب على ما يظهر - سوى مازنى واحد ، وهذا غريب ، فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى ، ولكنى لم أسمع ان واحدا من بنى مازن انحدر الى الحجاز لهذا الغرض . وأسر اليك أنى أخشى ان يكون ابن السعود قد فتك بهم »

فدهش وقال لماذا ؟

فخفضت صوتى جدا ، وشببت عن الأرض لأهمس فى أذنه « ان قومي عفا الله عنهم - من أهل التخفيف » قال « ماذا تعنى ؟ فانى لأفهم »

قلت « اعنى انهم من ذوى المروءات ،

وقال « وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوى المروءات ؟ »

قلت « إن ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة » قال كيف ؟ لماذا ؟

« قلت ان اللغويين أعداء قومي - الاعداءهم - يسمون

المروءة قطعاً للطريق ، والتخفيف عن الناس سطوا عليهم ، وابن السعود وهابى أى على مذهب اللغويين - سوء تعبير او خطأ فى

الوصف كما ترى ، واخشى ان يكون قد جر على قومي و بالا
نهل لك فى حلفى ؟ »

قال « حلفك ؟ »

قلت « نعم . تحالفنى على ابن السعود . اذا ثبت انه

اوقع بهم . »

فالتفت الى بسرعة وقال « أتتكم جادا ؟ فليست اكنتمك انى

مستغرب حديثك وانى لا أكاد أفهم شيئاً ! »

وهنا أدركنا واحد فوضعت أصبعى على فمى ، ونسكن «الواحد»

لمحنى فقال للوزير

« أنا واثق أن حديث المازنى قد حيرك »

فقال الوزير - أو القائم باعمال الوزير على الأصح - « هذا

صحيح . لقد كاد يجرنى الى حرب ابن السعود ، من أجل قضية

لا أفهمها »

فقال « الواحد » - « الم أقل لك ؟ فماذا كان يقول ؟ »

فتركتهما يتذاكران وارتددت الى زملائى فصاحوا بى

« يا أخى أين كنت ؟ »

قلت « لماذا ؟ الست أمامكم ؟ »

قالوا « إن الأمير قد تفضل ودعانا الى خيمته ليودعنا على

انفراد ، ولنا ربع ساعة نبحت عنك »

قلت « حسناً فعلتم . تفضلوا . »

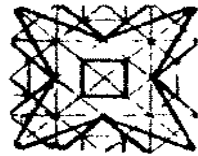
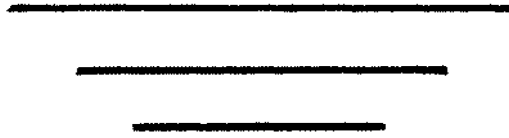
وسرت أمامهم الى الخيمة ثم تنحيت لركى باشا فان شيبته
أضوا من شيبتي ، وأنا رجل لا يكابر في الحق ، فتلقانا الأمير - ومعه
قواد بك حمزه مدير الشؤون الخارجية - بالتأهيل والترحيب ، وأعرب
عن سروره بزيارتنا للحجاز و يقينه انها ستؤدي الى توثيق العلاقة
بين الشعبين الشقيقين ،

فقال زى باشا إن العادة تثبت من مرة واحدة فقال سموه انها
كذلك ، وانى لأرجو أن اراكم فى كل عام على الأقل مرة .

وذكر بعضنا المدينة وانه يجب زيارتها ، فقال سموه إن الأمر
فى ذلك لكم ، فاذا شئتم أن تتخلفوا أياما أخرى فان الزيارة
سهلة ، ولكنها تكون شاقة ومتعبة اذا أردتم أن تدركوا الباخرة التى
تبارح جدة يوم السبت ، فاختاروا ماشئتم

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتذرنا بان أعمالنا
فى مصر لا تسمح لنا بطول التغيب ، ورجونا أن تتاح لنا فى العام
المقبل فرصة العود الى مثل هذه الزيارة ، وأفضنا فى الاشادة بما
شاهدناه من دلائل التقدم وامارات الاخلاص فى ترقية الأحوال
وتحسين الشؤون وقلنا ، وقيل لنا كلام كثير نسيت أكثره ثم

تفضل سمو الأمير نخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض افدى
حافين به .
ثم سلينا وعدنا الى جدة . وكان هذا ختام الحفلات الرسمية



في بيت العويني

في بيت العويني ، عرفت العويني ، أعني أن استطعت أن ألم
بطرف من الصفات والخلال التي أعانته على التوفيق في حياته ،
وهو على ما علمت من أسرة سورية وكانت له تجارة رابحة ، فلما
قامت الثورة السورية أمدّها بشبابه وماله وتديره ، وكان
أشبه بزعيم محلي ، فقبض على طائفة من رجاله ، قال محدثي -
والعهدة في الرواية عليه - فأصبح يوماً فاذا نساء الحى يصرخن
ويولولون ويندبن ويصحن « يخرّب بيتك يا عويني »
نخيف أن يفضى ذلك الى اعتقال الباقيين والى احباط التدبير
كله ، فتولى العويني الانفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء -
أمهاتهم وزوجاتهم وأخوانهم الخ وأحكم أمره وسارت الأمور على
خير ما يرجى في مثل هذه الأحوال ، وكانت الأسرات التي
اضطر أن يعولها كثيرة وفقيرة ، فأرهقته واستنزفت موارده فلم
يسعه إلا أن يصنّ تجارتها - أو ما بقى منها - وأن يرحل
فقصده الى الآستانة وفي مأموله أن يبدأ حياته من جديد

ومكث هناك شهوراً ثم انى نفسه ينفق ولا يربح فاحتمل حقايبه
ومضى الى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سورى كبير ، وظل
كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن
ينشئ لنفسه تجارة مستقلة .

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار فاذا جاء يوم الجمعة
أنقذوه اثمان ما باعهم ، وقد اخبرنى محدثى - ولى به ثقة - أن
متوسط ما يجمعه من التجار فى كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف
جنيه ، لا أدرى كم يكون ربحه منها ، وقد ذكرت ذلك لأعين القارىء
على تصور مبلغ النجاح الذى أحرزه والذى يستحق أضعافه ،
لنشاطه ودؤوبه وكده ، وقد كنا نفتح عيوننا فى الصباح وتثائب
ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بذلته (الافرنجية) ولا
ينقصه الا أن يضع على رأسه الحرام الحريرى الأبيض ، والعقال
ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج الى عمله قبل ذلك
بساعات ، ولكنه كان مضطراً أن يتأخر حتى يفطر معنا ، وكنت
أعجب بلباقته وكياسته وحقه فى حثنا على النهوض والافطار
من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله وأنه يريد أن يخرج
ليباشره ،

وكان العوينى يبدو لنا كأنه كل شئ : الحكومة والرعية
جميعاً . فهو الذى يعهدون اليه فى تنظيم كل أمر ويكون اليه

الإشراف عليه ، ويعتدونه مسئولاً عنه فما احتجنا إلى شيء إلا قلنا
أين العويني ؟ ولا أرادت الحكومة شيئاً إلا قالت : هاتوا العويني ،
ولا ناقة له في ذلك كله ولا جمل ، ولكنه النشاط وحسن التدبير
والسرعة الرائعة في إنجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر
وكان يساكنه شاب آخر في مثل سنه أو أقل - بل هو
أصغر على التحقيق - اسمه إبراهيم أفندي شاكر حسبناه أول
الأمر أخاء ثم عرفنا أنه صديقه ووكيله ، وهو حجازي صميم
كان سكرتيراً خاصاً للملك السابق علي بن الحسين ، وإبراهيم أفندي
كصاحبه العويني في النشاط والرقّة ، ولكنه ساكن وادع الطائر
طويل الصمت ، يمر بك كالنسيم الواني ، والنظرة إلى وجهه تنعش
الروح وتحيي النفس ، والجلوس معه يشيع في صدرك الطمأنينة
والاحساس بالراحة التامة ، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكمل
ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون إلا مفتر الثغر .

وفي بيت العويني أيضاً كان من حظي أن عرفت خالد بك
الحكيم ، وكان يلبس جبة وقفطاناً ، وعلى رأسه الحرام والعقال ،
وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار ، وفي عينه التماع عجيب ولحيته
سحر ، وهو سوري من كبار المجاهدين ، تخرج في المدرسة الحربية
في الآستانة وخاض حروباً شتى في أوروبا وآسيا وأفريقية -
طرابلس - وكان مع جيش ابن السعود الذي فتح الحجاز ،

ويسمونه « الغطاس » لأنه يكون اليوم معك وتفترقان على ان تلتقيا غدا ، واذا به غدا في الشام أو اليمن أو بمباى ، ولا يدري سواه اى طريق سلك ، ولا علم لأحد بما كان ينوي ، وهو بكل بلد اعرف من أهله وأنفذ بصيرة في حاضره ومستقبله ، والعشرة من أمثاله يعادلون أمة ، ولقد لقيته بعد ذلك في مصر فما ازددت الا اكباراً له وايماناً به ، إكباراً لقوته الصامته وجلده على الحياة وتواضعه المحبب واخلاصه وصراحته ، وايماناً بعظمة روحه

٥٥٥

وفي بيت العوينى جاءتنا هدايا الأمير ، وكان صديق لنا قد أسر الى اننا سنتلقى هدية فسألته عنها أى شىء هى ؟ قال عباءة وعقال وما الى ذلك . فقلت اذا كانت هذه هى الهدية فمرحبا بها وليعجلوا ، فسألنى « واذا كان هناك غيرها ؟ » قلت « ماذا تعنى ؟ »

قال « اعنى ان من عادة العرب اذا حل بهم ضيف أن يهدوا و يهبوا ويصلوا »

قلت « ان من المعقول ان تكون هذه عادتهم . فان البدوى فى الحقيقة فقير معدم ، وطلبته الطعام والكسوة والمال ، فطبعى أن يكرم العرب الضيف أى أن يطعموه ويكسوه ويصلوه . ولكننا لسنا بدوا - وانى لأشتهى ان تكون لى عباءة وعقال ،

واكن هذا ليس لأنى عار مفتقر الى الكسوة بل لأنى أعتد هذه الثياب قنية
تستحق أن تدخر ، أما الصلة اى المال فبالله عليك الاما صرفتهم عنه ،
ليلا يخرجونا ويخرجوا أنفسهم . فانى لا أرضى أن آخذ ما الا لأستحقه
ثم انى استحقى أن أرد عطاء أمير ، ولكنى سأكون مضطرا أن أردده لأنه
لا يسعنى الا أن أعدده فى مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسى و بالحكومة
السعودية عنها ، وقد بالغت الحكومة فى إكرامنا وانفقت على
رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت لنا حتى أجور
التلغرافات التى بعثنا بها الى صحفنا ، وهذا كله فوق الكفاية ، ثم إن
ما شاهدناه كان له وقع جميل فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع
بالرشوة . وأنا مقترح عليك بديلا منها : فانى أشتهى بلح المدينة ،
المشهور ، فاذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتلفون لترسل الينا فى
ينبع قليلا من البلح ، فان هذا يكون خيرا من كل مال . «

وقد استشار صاحبى زميلا آخر لى فنصح له بمثل ذلك ، فعاد
اليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال ، وعلى الاكتفاء
بالكسوة العربية والبلح - والكسوة عبارة عن معطف مصنوع من
الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما
لا أدرى وعقال من الحرير مفضض وحرام من الكشمير ،
وقطعة من السكرودة . وقد احتجت ان أقصر هذه الثياب لأستطيع
لبسها والانتفاع بها

وفي ينبع ونحن عائدون ابي الأمير الا أن يستقبلنا كأنا كنا مثله.
امراء - في سرادق عظيم القيت فيه الخطب وأنشدت القصائد ،
ثم تغدينا واكلنا خرافاً حقيقية لاشك فيها ولا في رؤوسها ولا في
امخاخها ، وبلغ من حفاوتهم بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون
خدمتنا على الطعام .

ثم عدنا الى الباخرة حيث وجدنا باح المدينة في « صفائح »
بعددنا ، بل باكثر من عددنا ، ففرقنا ما زاد واحتفظنا بانصبتنا ،
ورسونا في الطور ساعات وطفنا به وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات
الوافية ، ثم عدنا بسلامة الله .

ولكن رحلتنا ونحن عائدون كانت فاترة فقد كان ينقصنا نبيه بك
العظمة وخير الدين افندي الزركلى . فقد نُخلفا في جدة



خاتمة

العرب أمتان في أمة ، أو هم على الأصح ثلاث أمم : واحدة تعيش في الحواضر على نحو ماتعيش أمثالها في كل بلاد العالم وهذه خايط من شعوب شتى ، فيها المصرى والسورى والفارسى والهندي والجاوى الخ ، وقد لقيت في جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم في مصر أقارب ومصالح وأملاك ، وحدثني كبير في الحكومة السعودية أنه عني بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالي فعرف نحو مائتي أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب ، ولكن الشبان المصريين هناك قليلون ، وهم في حكومة الحجاز يعدون على الأصابع ، ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين ، وهم أقرب الى بلاد العرب وأوثق بها صلة - زاحموهم فغلبوهم ، وللسوريين آمال قومية يعتمدون في تحقيقها - في جملة ما يعتمدون عليه - على السعوديين ، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم في معاهد الآستانة

وشردتهم عن سوريا الأحوال السياسية ، ودفعت بهم مساعيهم القومية الى الصحراء ، وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين ، وانما هم من ذوى انصلاية وأولى العزم والقوة فلا بدع اذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا في السنوات الأخيرة فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم . ومصر أرقى حضارة من سورية ، والترف فيها أوفر والحياة فيها أنعم ، ولهذا كان السوري لا يحس في الحجاز انه نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لا يجد هناك ما خلفه في وطنه من المتاعم والملاهى ، على انى لست فى مقام التقصى للأسباب التى أدت الى ضعف العنصر المصرى فى الحكومة الحجازية وانما أردت بما ذكرت أن ابين ان لهذا اسبابا معقولة . والأمة الثانية : القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة الى حـد ما ، وبالرعى وبقليل من الصناعات الساذجة ، ومواطن هذه القبائل ثابتة . ومحلاتها وعشائرها وبطونها وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم - ومرتب هذه نخرج امة ثالثة هم البدو الرحل الذين لا يستقرون فى مكان ولا يزالون يتحولون من هنا الى هناك وقد أدرك ابن السعود بفطرته الزكية ان هذه البداوة هى آفة الأمة العربية وعلمته التجارب ان البدو لا خير فيهم فى حرب ولا فى سلم .

فهم في الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما إليها ليغنموها ، ومن أجل هذا كان يعتمد في حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو في المعارك ويضع جيشه النظامي وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة . أما في السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صناعة أو زراعة . وما دام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها الى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر في مكان . ولهذا فكر في تحضيرهم واخراجهم من هذه البداوة فاتتق لهم المواقع التي يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له ان يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وان يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وان يعلمهم ويشقفهم . وتسمى هذه المواقع التي اختارها لهم وألزمهم الإقامة بها والعمل فيها « الهجر » بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذلك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها وعلى هذا النحو العملى بحل ابن السعود مشاكله العديدة ، فالحجاز مثلا - على حضارته نسيبا - صحراء جرداء ، والماء اكبر ما

يحتاج اليه وأول ما ينقصه ، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف - كل بدوره - وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفي جده ، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر واشترت أخيراً آلة كهذه لجدة تقطر في اليوم مائة وخمسين طناً من الماء ، وأصلحت الصهاريج التي تُخزن بها مياه الأمطار ، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التي سدّدت أو خربت ووجدت أن الآبار قليلة الغناء لأنها تُجف وتنشف في بعض الفصول فأنخذت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض ، وبما يذكر في هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التي يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها . غير أن معداتها لم تكن كافية ، فعادا ، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجح أن يكون اختيارهما من لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين ، وعملت الحكومة على إصلاح عين زبيدة بإنشاء خزان ومد أنابيب ، وهي تبني خزاناً كبيراً آخر لجمع مياه المطر يسع مائة ألف طن ، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته في مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة

لاتدعو الى البناء الا من ناحية واحدة

ومن أجل الماء تعفى الحكومة كل الآلات التي تتخذ لاستنباطه من الرسوم الجمركية . وكذلك آلات الزراعة . بل هي تقسط أثمانها على الأهالي تشجيعا ومعاونة لهم . ومن أجل الماء تعنى بالتعليم الهندسى ، ولذلك ارسلت الى الأستانة طالبا يتعلم الهندسة ، وبعثت الى برلين بأخر . والحجاز كمصر ينبغى أن يكون بلاد الهندسة والمهندسين البارعين .

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة ، فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة يملكها الملك ، حسين السابق ، وفي الحجاز الآن ألف سيارة ومائتان . والبريد ينقل بين جدة ومكة ، وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين فى اليوم . والشرطة يتخذونها للمرور والعسس ، والجند كذلك للانتقال والحمل . وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد . ولا بد لذلك كله من الأمن والافسد الأمر كله . ومن هنا قسا ابن السعود فى أول الأمر فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقطاع الطرق . وأدب العشائر التي تسطو على الحجاج ، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة . وقد رأيت بعينى رأسى شواهد رائعة وأدلة مدهشة

ومن أجل طول المسافات وتقادف الأبعاد اتخذت الطيارات واللاسلكى فضلا عن التلغراف السلكى المعتاد، ولللاسلكى الآن أربعة عشر مركزا . وقد انشأت الحكومة مركزا جديدا فى جزيرة دارين . وهم ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتلغراف والتليفون اللاسلكى وذلك لوصول الرياض ومكة والمدينة وكل مركز فى الألوية والأقضية

ولم يتخذوا القطر البخارية لأن تكاليفها باهظة لاتقوى عليها الميزانية . ولأنهم من ناحية أخرى يحرصون على أن لا يقطعوا أرزاق الجمالة . على انهم فكروا فى انشاء خط كهربائى بين جدة ومكة وأصلحوا الطرق وعبدوها وكبسوها بواسطة « وابور الزلط » كما نسميه فى مصر

ومن أجل الحج واتقاء لتفشى الأمراض انشأوا فى مكة مستشفى يسع مائتى مريض وجعلوا فيه اقساما للجراحة والأمراض الباطنية وغير ذلك ، ولهم الآن عشرون طبيا حجازيا . وأقاموا محطة للحجاج فى بحرة بين جدة ومكة وفيها مستشفى ، فضلا عن المحطات الأخرى للراحة . وأصلحوا الكرتينة ورتبوا دوريات صحية وبنوا المظلات فى عرفات ومنى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا فى كل منها طبيا وممرضا . والحكومة تلحق الناس ضد الجدرى . وقد انشأت

معملا للحصول على مصول الجدري والكوليرا والتيفوئيد. وأرسلت بعثات طبية للخارج . واستعارت طبيبا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة

وقد حقنا بمصلي الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من السويس، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك . على الأقل في هذه الأيام. وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات ان الحج نظيف. أما من حيث التعليم فللحجاز بعثة في مصر مؤلفة من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا فضلا عن البعثات الهندسية والطبية التي أشرنا اليها . وقد انشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية في جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها ومدريتين ثانويتين في مكة وأخرى في المدينة . ورابعة في جدة . وهذا غير المعهد السعودي في مكة وغير مدرسة المطوفين التي أنشأتها - كما أنشأنا في مصر مدرسة الأدلاء والتراجمه ، وغير المدارس الدينية التي لاتعد مدارس حديثة

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشا كل بلاده ، ويعالج ترقيتها وقد تبدو الخطى قصيرة ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها . والمال هو العقبة الكبرى ولكن الحكومة لاتتعجل ولا تذهب الى إثقال كاهل الناس بالضرائب من أجل ذلك ، وشعارها ، أرى العجلة من الشيطان . ولكن، خطاها وطدة

مستمرة . كخطى السلحفاة التي سبقت الأرنب ، والأرنب عندي هو مصر . ولقد عدت من الحجاز وأنا مقتنع بأن مصر إذا ظلت تتخبط وتولى الشؤون السياسية هذا الحظ الباهظ من عنايتها على حساب المرافق الجديدة والمرشد الحيوية . فسيسبقها الحجاز بلا أدنى ريب .



مطبعة فؤاد

بشارع عبد الحق السنباطى رقم ٢٠
بميدان الأوبرا

مستعدة لطبع الكتب وأشغال التجار
والمحاميين والدوائر بأثمان لآتجارية وأسعار
لاتبارى مع صدق المعاد واتقان الطبع
ونظافته